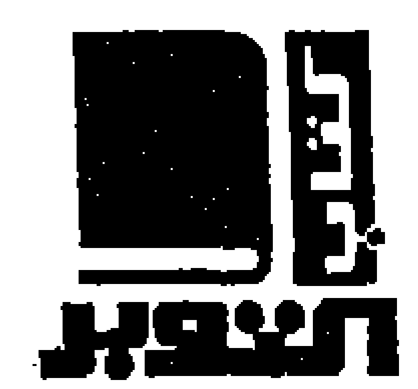
تنوير

الدكتور محمد شعلان

فابيولا بدوى

إرهابيّون ولكن..!!

دار المعارف

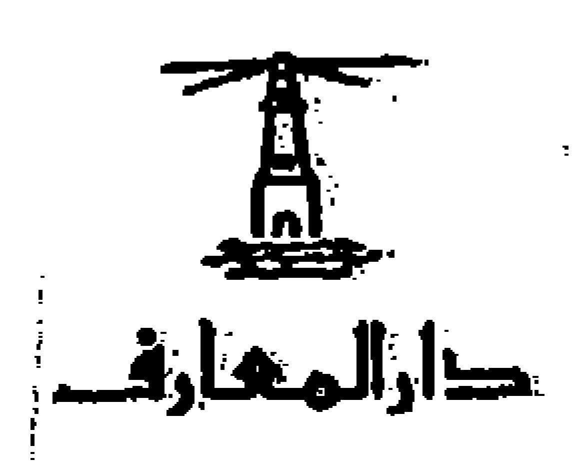


إرهابيون ولكن..!!

تأليف :

الدكتور محمد شعلان

فابيولا بدوى



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م .ع .


مقدمة

الكتاب الذى نقدمه للقارئ الآن ما هو إلا محاولة متواضعة جدًّا منا لتناول أكثر من بعد من أبعاد قضية هامة لا تهدد مؤسسة الحكم فى مصر فقط ، بل تهدد أمتنا جميعًا ...

ونحن هنا لا نشتبك مع مقولة أو آلية أو اتجاه بعينه بل نحاول قدر استطاعتنا أن نكون موضوعيين عند تحليلنا لظاهرة التعصب التى استشرت فى مجتمعنا فى الآونة الأخيرة ، فربما أفاد ذلك بشكل أو بآخر فى فهمهما وبالتالى إمكانية الوصول إلى حلول – على المدى الطويل – قد تعيد للحياة المصرية بعضًا من توازنها الذى بدأنا نفتقده جميعًا .

كما أننا لسنا بصدد تشخيص للظاهرة من خلال منظورها الدارج فى الإعلام الرسمى ، بل هى محاولة للبحث عن ماهية العوامل الحقيقية التى أفرزت هذه الظاهرة وخلقت المناخ الذى أدى لنشأتها ، ووصل بها إلى حد المواجهة الشاملة التى لن تجدى إلا على المدى القصير إن أفلحت !

ومن الضرورى أن نوضح منذ البداية أن الإرهاب يدخل ضمن ظاهرة التطرف بشكل عام ، حتى لا نقع فى براثن تفسير ظاهرة جزئية ، فالإرهاب غالبًا فى جوهره سياسى بينما التطرف والتعصب الذى نحن بصدد تشخيص أسبابه ودوافعه ما هو إلا ظاهرة لها أبعاد متعددة (اجتماعية ، وسياسية ، واقتصادية) تؤدى كلها إلى الوقوع فى براثن الأزمة النفسية أو تنتج عنها .

لأن قضية على هذا المستوى من التعقيد حيث تتشابك فيها العوامل النفسية مع المناخ العالمى والمحلى المحيط بنا ، لابد وأن تتطلب بحثًا من كافة جوانبها بقدر الإمكان .

وإذ يتصدى طبيب نفسى لمثل هذه الظاهرة على تعقيدها فهو يخوض فيها من خلال مناطق محدودة تحكمه كطبيب نفسى :

– إنه محكوم بمنهج يقوم على أساس أن كل حالة تمثل مشكلة وتحتاج إلى تشخيص لمعرفة الأسباب التى أدت إليها ، حتى يمكنه التوصل لنتائج تساعده على إيجاد الحل المناسب والذى يتلاءم وهذه الحالة ، والمعيار الحقيقى فى الحكم هنا على صحة التشخيص هو مدى فاعلية العلاج وصلاحيته .

– إن اهتمامه بالدرجة الأولى دائمًا اهتمام إنسانى يضع فى المقام الأول المقياس الحقيقى لرصد وجود المشكلة فى مدى التأثر الإنسانى بها ، لأنه يرى دائمًا أن المجتمع بل والإنسانية كلها تجتمع فى أعماق إنسان ما .

من هذا المنطلق يمكننا القول أن بعض البشر لديهم القدرة على الاتصال بالعقل الجمعى للإنسان سواء كان هذا العقل متمثلاً فى المجتمع أو القبيلة أو الوطن ... إلخ .

لهذا أصبح الطبيب النفسى قادرًا على اتباع منهج أو تشخيص ، يمكن أن يؤدى إلى دفع إنسان ما للجنون – إذا ما أخطأ التشخيص – بينما يستطيع فى حالة أخرى ووفقًا لتشخيص صحيح أن يرتقى به إلى صفات النبى ، أى الشخصية المتوازية ذات القدرة على التنبؤ والفعل

الإيجابى ، وقد يلقى هذا المنهج بظلال الاختلاف مع أصحاب المدرسة القياسية (عالم النفس ، عالم الاجتماع ... إلخ) حيث يؤكدون أن مثل هذه الدراسة الفردية لا تعدو كونها مجرد تخمين لا يرتقى إلى مرتبة العلم ، بينما يرى أصحاب مدرسة الطب النفسى أنهم قد لا يملكون دقة العلم لكنهم دون شك يقبضون على مصداقيته ، خاصة فى لحظات سقوط الأقنعة (لحظات الجنون ، أو ما يندرج تحت اسم الأزمة الروحية) ولعل هذا هو ما نحتاجه الآن فعلاً ومن هنا تأتى أهمية مناقشة طبيب نفسى لهذه الظاهرة .

والبعد المختلف الذى ننظر منه إلى ظاهرة الإرهاب .. يجعلنا نبتعد كثيرًا عن تلك المعالجات التى قد تستغل حدثًا معينًا .. فتضع عنوانًا على بعض الأوراق .. ويقبل عليها القارىء شغوفًا بالمعرفة .. فيخرج فى النهاية بشىء ضئيل منها ..

ولأنه قارىء معايش ومشارك فى الأحداث فهو لا يميل كثيرًا إلى التذكير بها .

من هنا كان اختيارنا المختلف وهو الغوص فى أعماق الشخصية والطواف بكل مساحاتها السوداء والملونة التى تعطينا فرصة التعرف على شخصية الإرهابى .

ولأننا هنا لا نفصل شخصية الفرد عن الذات العامة . فلم نفصل جذور هذه الذات - على اتساعها - ومناقشة مالها وما عليها لصنع هذه الشخصية الإرهابية ، فهذه الذات العامة أيضًا لا تعيش بمعزل عن الذات الدولية وأطماعها ، وهنا نؤكد أننا لسنا محللين سياسيين -

وإن كانت السياسة أصبحت اليوم شغل الجميع الشاغل – ولكننا ندخل ذلك كله فى معمل خاص ندرك تمامًا ملامحه فى هذه القضية الهامة .

وقد تحصنا فى رحلتنا هذه بأسلحة كثيرة ، يتمتع بها مجتمعنا ، فى مقدمتها ديمقراطية الرأى والتقويم ..

لهذا فنحن نعبر هنا عن وجهة نظرنا فى كثير من العلاقات الدولية العربية والمحلية ، دون أن نلقى التهمة على أحد بعينه .. لأننا على يقين أن النظم السياسية قد تكون أسوأ من الأشخاص الذين يتولونها أحيانًا ..

من هذا المنطلق نحاول الغوص وراء حكمة أن الناس – ليسوا أمة واحدة – من وجهة نظر نفسية – مع إيماننا العميق بأن الإنسان على هذه الأرض قد بدأ خليفة الله عليها .. ولا نظنه الآن لا يزال يحتل هذا العرش وهو يخرب ويدمر ويتصارع .

وأخيرًا فالإسلام هو دين العقل ، والفكر ، وليس رداء أو مسوخًا يلبسه الأحبار والكهنة أو مظهرًا متخلفًا يضحك منه أعداؤه ، فما الذى جرى للإسلام والمسلمين ؟ ولماذا الثرثرة الجاهلة بدلاً من الجدال والحوار العالم العاقل ولماذا أصبحت طلقات الرصاص بدلاً من التسامح والشورى والنصيحة ؟

لا نظن أن وقفتنا اليوم تخالف جوهر هذا الدين بقدر ما تحاول إعادة قيمه وملامح وجهه ، وعذوبة قلب رجاله إلى الساحة مرة أخرى

لكن من باب آخر غير باب الترغيب والترهيب ، هو باب التأمل فى النفس – وفى أنفسكم أفلا تبصرون .

ولعل القارىء الآن على قدر كبير من الوعى باختلاف رحلتنا واختلاف تأملاتنا .

د . محمد شعلان
فابيولا بدوى

إرهابيون .. ولكن !



أولاً

الأسباب والجذور

دأبت أجهزة الإعلام الغربية على تصوير الانتفاضة الإسلامية كأنها أبعد ما تكون عن صحوة حضارية ، يمكن أن تحرر العالم الإسلامى من حالة التدهور المتصاعدة ، والتى تقودها الحضارة الغربية بل وتحمل رايتها أقل الأمم التى يحق لها أن تكون صاحبة تراث حضارى ، فالولايات المتحدة تقوم على أساس القوة العسكرية المجردة بلا دعوى ولا مبدأ ، باختصار هى دولة جيش من المرتزقة يحمى كل ذى مال أو ثورة للدرجة التى جعلها تنجح فى حرب الخليج ، أن تضع أقدامها فى الأرض المقدسة لأول مرة منذ أن كان الشرق الأوسط كله مستعمرة أوروبية ، والآن يجىء الدور على مصر لتعجيزها اقتصاديا وسياسيا ، إما للمزيد من الإخضاع لسطوتها السياسية أو باستبدالها بحكومة مقبولة منها حتى لو جاءت على أكتاف ما قد يبدو أنه ثورة إسلامية دون ما رغبة جادة فى إقامة حكم إسلامى فى مصر ، وكأن مصر غير مسموح لها أن ترفع راية - إسلامية أو غيرها - بعد أن كادت راية القومية العربية أن تحرز مبدأ جماهيريًا لا سيطرة « لفرعون » أو صفوة حاكمة عليه ، فالزمام قد يفلت إذا ما كان الشعار إسلاميًّا بما يجعله يقارب التطرف غير المحكوم وغير المعقول ، أو المسير من مطابخ الصفوة الإرهابية الدولية وجيشها المرتزق ، ولنعترف رغم كل شىء أنها لم تتوان لحظة عن التخلى عن شعب وجيش العراق ، حينما بدا عليه أنه سوف يعمل لحسابه ويأخذ الأمة العربية معه ، بل وطحن شعب العراق مع الإبقاء على رمزه ، وتكرار إظهاره بمظهر المقاتل بالحنجرة طالما هو يخضع إذلالاً لكل ما تأمر به أمريكا ، ويقدم التبرير لاستمرارها

فى احتلال الأراضى المقدسة التى كانت فيما مضى تتقدم بالرجاءات ليسمح بقاعدة مقابل أجر .

بنفس المقاييس ترى الحضارات الغربية أنه طالما توجد الثورة الإسلامية فى إيران ، والحكم العسكرى الإسلامى فى السودان ، فإن الإسلام الرسمى الذى تدعى أغلبية الأنظمة العربية أنها تحكم باسمه ، لا يقدم قدوة لشعوب العالم الإسلامى بل إنه غير قادر على إلهاب حماس فقراء الجماهير سواء فى العالم الإسلامى أو بين حلفائه التاريخيين مثل أقباط مصر ، فلا خطر على هذه الحضارات إذن ، فالذى كانت الولايات المتحدة تخشاه فى الاتحاد السوفيتى لم تكن قوته العسكرية أو الاقتصادية ، ولكن جاذبية أيدولوجيته الاشتراكية لفقراء العالم .

هكذا تتحد مخططات سياسة المعسكر العربى ، بفكر أوروبا وتنفيذ أمريكا ، على اعتبار أن تفتيت العالم الإسلامى وعالم الفقراء سوف يوفر استخدام جنود السادة من الأثرياء ، كأن ترسم حدودًا للعراق وتجعلها فى حالة اختلاف موقوت ودائم مع كل جيرانها شرقًا وغربًا وهى مختنقة بهما عند منفذها إلى الخليج ، ناهينا عن التراجع والتناقض بين ثلاث وعود : واحد لليهود فى فلسطين ، وآخر للعرب (السعوديين) فى نجد ، والثالث للهاشميين فى الحجاز ، وكان فحوى الوعدين للعرب واحدا : هو إقامة دولة عربية موحدة بعد التحرر من الخلافة العثمانية التى هرمت وتدهورت ولم تعد قادرة على توحيد العالم الإسلامى .

هذا هو التراث الحديث للحضارة الغربية القائمة على إعلاء قوة المادة وهز الدنيا ، أى بلا قيم روحانية عليا تحكم علاقاتها ببقية بنى الإنسان وهذا هو ما يتطلب منا بالفعل أن نتعامل معها بعقل مؤمن واع بدلاً من التصدى لها بتراث اجترارى مغرق فى صغائر وتفاصيل الأمور كتحريم استعمال الخل ، والموسيقى ، والرسم .

صار علينا أن نفهم الفرق بين أن نمد جذورنا فى التراث وبين أن نغرق فيه ونتعامى عن الواقع ، أن نأخذ من التحديث ما يتناسب واحتياجاتنا لنستثمر عطاءنا الخلاق بدلاً من أن نستدير عنه منكمشين فنفقد شخصيتنا .

إن المستقبل قادم كالطوفان بخطوات سريعة وهذا لا ريب فيه مما أفقد الكثيرين قدرتهم على التوازن أمام غزوه حتى تصوروا أنه آت لتدمير حاضرنا المتفاعل معه بشكل مباشر ، مما دفعهم إلى الارتماء فى أحضان الماضى ظنا منهم أن بقاءه لقرون طويلة سبب كاف لصموده أمام موجات المستقبل .

إن التحدى الحضارى الذى نواجهه اليوم هزم البعض بل أصابهم بما يسمى « بالصدمة من المجهول » ، رغم أن المواجهة الكاملة والإيجابية لهذا التحدى لن تتم إلا بحركة مستمرة عبر الزمان والمكان يحمل آلياتها الفرد تلو الآخر ، كى يمكننا تعميق جذورنا بالتفاعل بدلاً من الانهيار لأننا عجزنا عن مواكبة حركة التاريخ والأخذ بمجريات الحاضر للحاق بالمستقبل ، خاصة وأن فقدان الحضارات المادية الغالبة للقيم الروحية ، جعلها دائمًا فى حالة من القلق والخوف

من أى نهضة دينية ، خاصة الدين الإسلامى – الذى يحقق فى جوهره نوعًا من الموازنة بين العدالة الاجتماعية والحفاظ على القيم العليا للإنسانية – لذا قامت هذه الحضارات بتصدير أزمتها الروحية وقلقها كحل أخير للخروج من هوة التناقض التى تتنازعها ، ولأن مصر الإسلامية تمثل باستنارة عقيدتها نوعًا من التهديد للكثير من الدول الغربية والعربية على السواء ، لذلك صار أمر تصدير أمراضهم الاستعمارية إليها حتمى .

وقد ساعد على ذلك وجود عناصر كثيرة فاسدة ترعى فى قلب مصر نفسها ، بل إنها على استعداد دائمًا لاستيراد مثل هذه النفايات الفكرية والمتاجرة بها مستغلة فى ذلك الركود الاقتصادى والاجتماعى الذى تسيد الموقف داخليا فى الآونة الأخيرة .

إننا إزاء حالة من الفوضى الدولية أفرزتها لحظة الانهيار التى أصابت أيديولوجيات بعينها ، حيث أدت بالأوضاع الدولية والإقليمية والمحلية إلى فقدان الثقة فى الأفكار والمفاهيم التى اعتقد البعض فى رسوخها حتى سادت حالة من التخبط الفكرى التى تفسر لنا – على الأقل – ظهور موجات المناداة بالعودة للماضى بدلاً من القفز إلى مستقبل مجهول ، وهذا ما نطلق عليه « الأزمة النفسية للحضارات » .

وفى ظل هذه المتناقضات يمكننا أن نتصور كيف يتأثر الإنسان العصرى بها باعتباره الوحدة الأولى المتلقية لهذه الأمراض الحضارية ، ويظل هذا التأثير فى نطاقه العادى طالما أن صراع الشخص مع نفسه محولاً بأكمله لداخله (المرض النفسى العادى) .

ولكن إذا ما نجح هذا المريض فى تحويل صراعه مع نفسه إلى صراع خارجى ، فهو بالطبع ينتقل إلى مرحلة مختلفة تمامًا ، يبدأ فيها بإيذاء الآخرين بل إنه يجاهد أحيانًا للخروج من دائرة الاكتئاب بإلقاء اللوم على من حوله ، ومن ثم يرى البشاعة تحيط به من كل جانب ، فيتبع فى صراعه هذا قانون الغاب لتحقيق طموحاته الخاصة ، أو لتفجير الثورة الكامنة فى داخله ، ليتلاقى مع أصحاب المصالح الحقيقية فى تغذية مثل هذه الصراعات والأوضاع المريضة .

لقد استطاعت الأزمة النفسية التى أصابت الحضارات الغربية أن تحدث فينا نوعًا من الخلل والبلبلة النفسية التى تجاوزت الكثير من الحدود المتوقعة لها ، لقد فقدنا القدرة على التوازن النفسى والذى نعنى به هنا إمكانية عمل ما يسمى « بالجماع » ، أى صنع التوليفة السليمة والتفاعل الكامل فى داخلنا بين الأطروحة المضادة .

وهذا الجماع يختلف تمامًا عن الحل الوسط Compromise الذى لا يؤدى فى النهاية إلى شىء .

فالإنسان الذى يستطيع تحقيق جماع الأطروحة فى داخله هو وحده القادر على المحاولة المستمرة لمعايشة التناقض المحيط به ، لأنه بذلك يتجاوز مرحلة التفكير الثنائى ليرى أن كل فكرة تحمل نقيضها وكلا النقيضين يمكن أن يكون صحيحًا .

أما النوع الثانى والمضاد نجده لا يرضى بتكامل التفكير مما يجعله فى حالة قلق دائم ، حتى تصبح الثنائيات القاطعة سمة له ، ليجرفه

التيار بعد ذلك نحو التعصب ، لأنه تفكير عاجز عن مواجهة الغموض من حوله .

ونظرة واحدة لشبابنا المتطرف اليوم تدل على ذلك ، إنهم لا يقبلون تحمل فكرة الخلاف معهم ، أو استيعاب منطق أن أكون أنا وأنت على صواب أو على خطأ ونتعايش معًا .

فالتركيبة العقلية للمتطرف غالبًا ما تجعله ضد الآخرين ، لذلك نجده فى حالة بحث دائم عن عدوله ، وإن اضطر لاختلاقه فى بعض الأحيان ، إنها تركيبة الشخص الذى فقد توازنه فأصبح لا يملك حواسه ليسمع ويرى ويتقبل الرأى الآخر ، وغالبًا ماتكون هذه التراكيب العقلية والنفسية ضحلة الفكر ، مسطحة الأبعاد ، عصبية غير قابلة للنقد ، فلماذا تتعجب منها إذا مالجأت بعد ذلك لحمل السلاح فى مواجهة الآخرين حيث إنه الأعلى صوتًا والأحادى النبرة ...

فالتطرف إذن ما هو إلا لون من ألوان الانحراف النفسى والعقلى الذى يحتاج لمناخ – محلى وعالمى – يهيىء له النمو ، وغالبًا ما يتمثل هذا المناخ فى الشعور بالضعف وفقدان الحدود الطبيعية للشخصية .

وفى مصر نستطيع القول إن بذور الإرهاب لم تنشأ وليدة اللحظة الراهنة ، بل إن هناك مناخًا ساهم فى نشأتها ونموها ، بدأ مع بدايات « جماعة الإخوان المسلمين » فى الأربعينات والتى تغذت على ذلك الشعور العام الذى ساد البلاد بعد نكسة ١٩٦٧ ، عندما وقع الجميع فى الحيرة ما بين الهزيمة الساحقة التى لحقت بنا ، وبين وجودنا كقوة معروف عنها تميزها فى الشرق الأوسط ، للدرجة التى جعلت البعض

يرى فى هذه الهزيمة عقابًا من الله لأننا ابتعدنا عنه وعن أحكامه ، حتى فى إسرائيل فسر المتطرفون انتصارهم كنتيجة طبيعية لوقوفهم بجانب الرب .

وبعد سنوات من الهزيمة ، بدأنا نتفاعل مع الحضارة الغالبة بشىء من العقل ، خاصة وأن مصر فى ذلك الوقت لم تكن تعانى من الأزمة الاقتصادية للدرجة التى وصلت إليها الآن ، مما أدى إلى ميلاد طاقات راغبة فى التعليم والتعلم واكتساب الخبرات ، التى أثرت الحياة الثقافية المصرية وأفرزت لنا عصرًا ذهبيا للمثقفين أوائل السبعينات تقلص دوره بعد ذلك ، إلى أن جاءت مبادرة السلام التى قادها الرئيس الراحل أنور السادات والتى أدت إلى قطع العلاقات العربية المصرية ، وتصدير بعض الدول العربية للإرهاب داخل مصر كرد فعل لهذه المتغيرات السياسية خاصة من ١٩٧٧ حتى اغتيال السادات .

والآن يوشك هذا الدور الثقافى المتقلص على الاحتضار لوجود فجوة كبيرة بين نخبة المثقفين والصفوة الحاكمة .

ولكن هذا لا يتنافى أنه من خلال صحوات مصر الفكرية والثقافية كانت تمثل خطرًا على بعض الدول - الغربية والعربية - فمصر وحدها هى البلد التى يمكن أن ينشأ فيها تيار دينى يقبل الرأى والرأى الآخر ويستوعب فى مجمله الأسلوب الأمثل للتعامل مع الأديان والتيارات الفكرية الأخرى .

وهكذا بدأ الإسلام الثروى (المنتمى بكامله للمصالح الأمريكية) يغزونا ويسيطر على ثقافتنا ووسائل إعلامنا وفى الجهة المقابلة ، جاءت

أفكار الإسلام الثورى (فقراء ضد أغنياء) متسللة إلينا خاصة بعد الثورة الإيرانية ، واتخذ كلا الإسلامين محاربة النهضة فى مصر هدفًا له ، ولأنهما لا يمثلان خطورة على الحضارة الغربية لقيا تأييدًا واسعًا لديها ، خاصة وأن الخطر الذى يهدد الاتجاه الإسلامى الثورى (الإيرانى) والاتجاه السلفى (الثروى) هو نفس الخطر الذى يهدد الحضارة الغربية وإسرائيل إذا ما جاءت صحوة الإسلام « العلمى » المستنير من مصر تحديدًا .

ولكن الجزم بأن الإرهاب ما هو إلا مؤامرة خارجية فقط ، لا يمكن أن يكون وحده ممثلاً للنظرية الصحيحة ، فما حدث ونرصد نتائجه الآن ما هو إلا إثارة للصدام بين الإسلام واللا إسلام أى بين الاستنارة والتطرف ، ولكن أطراف هذا الصدام موجودة بيننا منذ سنوات طويلة ، إنها الآن تتخذ أكثر الأشكال عنفًا لهدم كيان مصر وذلك لأنها نمت وتشعبت وتضامنت مع المصالح الخارجية للإسلامين (الثورى والثروى) .

لقد التقت المصالح الداخلية للتطرف والمصالح الخارجية للأطماع الاستعمارية فى نقطة واحدة ، بل إن هذا التلاقى يلقى رواجًا داخل مصر نفسها من بعض المستفيدين من هذه الصراعات وأبسط مثال على ذلك (السعد ، الريان ، دور النشر الإسلامية التى لا حصر لها والتى تروج لأفكار معينة بالتحديد ... إلخ) .

إن كلا من أطراف اللعبة يؤدى دوره بمهارة ، ويمهد الطريق ببراعة لمزيد من العنف وإراقة الدماء ، سواء من خارج مصر أو داخلها

فالإسلام الثورى يلعب دائمًا على إثارة الفقراء بدعوى تحقيق العدالة الاجتماعية التى لم يحققها هو نفسه فى وطنه الأم (إيران) ، بينما يروج الإسلام الثروى لقشور الإسلام لتهميش وتسطيح جوهره حتى لا يبقى لنا منه سوى الصلوات الخمس والصوم وضرب وتعدد الزوجات والاعتراف الكامل بوجود الأغنياء لأن الإسلام أباح الملكية الخاصة .

وفصائل الجماعات المتطرفة تجد تمويلها فى كلا الإسلامين بل وتجد أيضا المأوى الذى يضمها حينما يفر بعض أمرائها خارج البلاد .

ومما يزيد من تهيئة المناخ لهذا التعصب الأعمى الذى يطمح فى السلطة وهو لا يدرى عن الحكم شيئًا ، أن الحكومة المصرية حينما وجدت نفسها فى مأزق لاتهام عملاء هذه الأطراف لها بالكفر بدأت تزايد هى الأخرى عليهم بالمغالاة فى تكثيف الجرعات الدينية فى وسائل الإعلام ، حتى وجد المواطن العادى نفسه فى حيرة لا مناص منها ، فما تقوله الجماعات المتطرفة يردده الشيخ الشعراوى ، والفارق أن الأول حاد النبرة والثانى مهذب ودمث ، حيرته من دولة تدعو للإسلام وتحارب الإسلاميين فى وقت واحد ، لقد أخفقنا نحن أيضًا فى أن نقدم للمواطن البسيط روح الإسلام وأخلاقياته ، إن كل ما قدمناه نحن أيضًا ما هو إلا قشور الإسلام وشعائره فقط حتى عجز عن التفرقة بين الخطأ والصواب ، لقد زايدنا على أفكار هذه الجماعات لنفى الاتهامات عنه ، فلم نستطع القيام بما هو مطلوب منا إعلاميًا

للحد من تفشى هذه الظاهرة بإدارة الندوات واللقاءات الفكرية والمناظرات الحقيقية على مسمع ومرأى من الجميع ، أخفق الإعلام فى تحقيق رسالته لحفظ أمن المواطن المصرى ، سواء عن طريق البرامج المراعى فيها دائمًا أنها سوف تباع لدولة عربية أخرى ، تفرض رقابتها علينا الكثير من المحاذير ، أو لاستحواذ بعض الدعاة والمشايخ — الذين فقدوا مصداقيتهم أمام الشعب — على هذه البرامج ، لقد فشلنا فى تعبئة المواطن لمواجهة هذا الزحف الأعمى الذى ينتشر فى جسد مصر كدولة وكيان ، حتى أصبح هذا المواطن ممزقًا بين تعاطفه مع السلطة وتعاطفه مع الإسلاميين المدعين فكيف نطالبه إذن بالتفرقة بين ما هو خطأ وما هو صواب ؟

هكذا يتضح لنا كيف هُيىء المناخ لتصاعد عمليات التطرف والإرهاب ، فالأساس موجود فى الداخل منذ فترة الأربعينات والخمسينات ، ونحن أغفلنا العوامل النفسية للهزيمة ، وما حدث بعد الانفتاح الاقتصادى ، بل وتناسينا أن قوة اليسار عملت فى وقت من الأوقات على خلق نوع من التوازن فى الحياة الفكرية ، مما عمل على تحجيم نشاط هذه الجماعة ، حتى سقط اليسار ، وتضافرت المصالح الخارجية لهدم الصحوة الإسلامية الحقيقية لمصر ولم نواجهها ، بل أخذنا شعاراتها التى صدرتها إلينا وزايدنا عليها ، وفى النهاية نحن لا نعفى النخبة الواعية فى بلادنا من تهمة التراخى والسلبية واتخاذ المواقف المتخاذلة ، تجاه بوادر هذه الأزمة والتقاعس عن احتوائها فى الوقت المناسب ، مما جعل المواجهة الأمنية هى السبيل الوحيد أمامنا

الآن – على المدى القصير – للحد من موجات العنف والإرهاب رغم أن كل ما سينزف في هذه المواجهة من دماء سوف يلوثنا جميعًا ، خاصة وأن الشعار المرفوع الآن هو لواء الإسلام ، وما أبشع مقولة حق يراد به باطل ، وليظل المناخ مهيأ لمزيد من العنف لو لم نعد حساباتنا جيدًا .

ولا يزال رد الرئيس الراحل أنور السادات على أحد المراسلين الأجانب عندما سأله عن أسباب انتشار اللحية والحجاب في مصر ماثلاً أمامنا عندما أجابه ، إن ما يحدث عندنا لا يعدو أن يكون مجرد ثورة لدى بعض الشباب توازى ثورة الهيبز في الغرب ولكنها تأخذ عندنا شكلاً دينيًّا لأننا مجتمع محافظ ، إنها طريقة يعبر بها الشباب عن رفضه لبعض الأوضاع الحالية ولكن لا خوف منها .

هكذا برر الرئيس السادات اتجاه البعض للتطرف ، ونحن قد لا نختلف معه في هذا التبرير ، ولكننا ندرك الآن كم أخطائنا بالاستهانة بهذه الظاهرة .

* **جماعات الهيبز الإسلامية :**

إن ما يحدث الآن لا يمكن وصفه بأنه أزمة يمر بها الشباب فقط ، بل هو تجسيد حقيقى لأزمة الهوية ، وتصاعد لموجات غاضبة لم نتنبه لها منذ البداية ، فعلى الرغم من وجود تشابه كبير بين ثورة الإسلاميين في بلادنا وثورة الهيبز في الغرب إلا أن أسلوب المعالجة للثورتين قد اختلف كثيرًا ، ففي الغرب كانت السلطة أكثر

تقديرًا لخطورة هذه الثورة ، فبدأت فى احتوائها على الفور ، بل إن الصفوة الحاكمة حاولت مجاراتهم بارتداء الجينز وإطالة شعر الرأس ، إلخ استمعوا لهم وبحثوا فيما وراء هذه الظاهرة حتى تجاوزوا هذه الأزمة ، وعملوا على تضييق الهوة بينهم وبين هؤلاء الشباب ، أما جماعات الهيبز عندنا التى ثارت منذ البداية على آبائها من الإخوان المسلمين واتهمتهم بالضعف والتردد فى حمل السلاح لمهادنة السلطة ، فقد لجأت بعض فصائلهم للهجرة فعلاً وعجز البعض الآخر عن الخروج إلى الجبال حيث الطبيعة كما فعل الهيبز فى الغرب ، لأن صحراءنا قاحلة تصعب المعيشة فيها ، وبدلاً من الهجرة والفرار بالدين كما يزعمون لم يجدوا أمامهم إلا مواجهة السلطة ، ببعض الأفعال الصبيانية الشاذة (كمقتل الشيخ الذهبى) ، لقد انحرفت ثورة الهيبز المصرية التى بدأت كأية ثورة بتمرد الشباب ، حاولت الدولة بجهد لا غبار عليه أن تدرس أسباب هذا التمرد ، ولكنها لم تصل إلى التشخيص الحقيقى الذى دفع بهؤلاء إلى العنف .

لقد فقد هؤلاء الشباب المصداقية لكل ما حولهم ، رفضوا كل شيء ، حتى الإسلام الذى يأتيهم عبر وسائل الإعلام مرفوض فى أعماقهم لأنه إعلام حكومى مغرض ، لقد كذبنا على هؤلاء الشباب وهذا جوهر المشكلة .. وعالجنا تمردهم بالاستماع إلى دروس الوعظ والتفسير اللغوى لآيات القرآن ، ولم نسألهم مرة واحدة لماذا تمردوا ؟ بل بدأنا نطلق عليهم الاتهامات فهم تارة جهلة ، وأخرى عملاء لدول

أجنبية مغرضة ، وفى أفضل الأحوال هم منحرفون وشواذ عقليا ، وهكذا حتى أصبح تمردهم تعصبًا ، وتحول تطرفهم إلى عنف يهدد البلاد كلها .

ماذا يريد هؤلاء الشباب ؟

سؤال يطرح نفسه ويلح على الأذهان ، والإجابة عليه ليست بالعسيرة ، طالما أن الفجوة الموجودة الآن بين شبابنا وأجهزة الدولة كبيرة ، وستزداد مع مرور الوقت لو لم نتكاتف جميعًا حكومة وأحزابًا وشعبًا لمواجهتها ومحاولة تضييق نطاقها .

إن هؤلاء الشباب ببساطة يعلنون عن حالة الاغتراب التى تعتريهم وتسيطر عليهم الآن تجاه كل ما يدور حولهم ، سواء على المستوى المحلى من تراكم المشاكل الاقتصادية المعاصرة التى جعلتهم غير قادرين على تحقيق الحد الأدنى من الاستقرار الأسرى والوظيفى ، إلى التدهور الثقافى الذى أفرز سلوكيات وأنماطًا غريبة على مجتمعنا الحالى ، تغذيه فى ذلك وسائل الإعلام المختلفة التى تتفنن فى تحطيم القدوة والمثل الأعلى فى المجتمع من خلال التركيز على النماذج السلبية والمريضة فقط ، وقد اغترب شبابنا أمام إعلانات التليفزيون وهذا السيل من السلع الاستهلاكية التى تعرض أمامه ، إنه يعلن عن عجزه تجاه مسايرة الواقع بأوضاعه المقلوبة فى معظم الأحيان* .

* انظر تقرير لجنة الشئون العربية والخارجية بمجلس الشورى .

أما على المستوى العالمى ودون وعى فكرى أو نفسى أو دينى ، يجد هؤلاء الشباب أنفسهم أمام بعض التيارات الدينية التى صعدت أو اقتربت من السلطة فى بعض البلدان ، بل وتعلن هذه البلدان أنها جادة فى مساندة أى حركة إسلامية تظهر فى العالم سواء بالمال أو بالسلاح ، هذا بالإضافة إلى حدوث مآس حقيقية للمسلمين فى بعض بقاع العالم دون أن تتدخل الدول أو المجتمع الدولى لنصرتهم ، مما أدى إلى استفزاز بعض العناصر الشابة البعيدة كل البعد عن ألاعيب السياسة الدولية ، للدرجة التى دفعت البعض للتطوع خارج البلاد وهناك بعيدًا عن أرض وطنهم كان التدريب على حمل السلاح هو الدور الرئيسى الذى يؤدونه ، مما أدى إلى ممارستهم للعنف بعد عودتهم دون أن يتعلموا التفرقة بين ما يحدث للمسلمين فى الخارج ، وبين حقيقة الأوضاع فى مصر .

ومن المفارقات العجيبة أن هؤلاء الشباب يطلقون صرخاتهم التى لم نلتفت إليها منذ سنوات طويلة من قلب جميع الأحياء العشوائية فى مصر – المصدر الأساسى للتجنيد الإرهابى – حيث الفقر والجهل وانتشار البطالة والتلوث والمرض وانعدام الكرامة الإنسانية للمواطن العادى .

إن صرخة هؤلاء لم تكن لإعلاء شأن الدين فى يوم من الأيام ، بل هى دائمًا للثورة على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى أدت بهم على مر السنوات إلى هذا التردى ، حتى اليوم ، ورغم أنها تتستر وراء الدين إلا أنها لا تعى من الدين شيئًا .

فجوهر مشكلاتنا هو الرفض ، رفض الفساد والزيف والتعمية السياسية والتعميم الإعلامى ، الرفض للتبعية الاقتصادية لأمريكا والتبعية الدينية لبعض الدول العربية التى لا تعرف عن الدين سوى الشعائر ، رفض لسياسة الحزب الواحد حينما يحكم ويُفرغ الوجدان المصرى من المشاركة السياسية الفعلية ، وبالتالى رفض لكل مؤسسات الدولة الحكومية والدينية على السواء .

ونحن هنا لا نتهم الدولة وأجهزتها بالفساد ، بل بالتقصير تجاه هؤلاء الشباب ، لقد أهملنا معاناتهم ولم نطلعهم على حقيقة الأوضاع الداخلية بصراحة ، ولم نحملهم المسئولية تجاه ما تمر به البلاد من أزمات اقتصادية وسياسية ، لقد قتلنا فيهم بإهمالنا الإبداع والطاقات الخلاقة الموجودة فى أعماقهم ، حتى قضينا على علماء المستقبل فيهم ولم نبق إلا على القتلة والسفاحين .

كيف لم نتنبه إلى أن شبابنا لن تكفيه هذه الجرعات الإسلامية الإعلامية المكثفة لتمتص غضبه ؟ لقد جاء الإسلام لتحرير الإنسان أولاً ثم جاءت الشعائر بعد ذلك بسنوات من نزوله ، فلماذا تصورنا أنه بالشعائر والقشور سوف يحيا الإنسان ؟ .

لقد وقع شبابنا فريسة سهلة للضلال باسم الدين ، لأننا لم نحمه من السقوط ، لم نستمع إليه ، ولم نحاوره ، ولم نخاطب عقله على الإطلاق ، لقد راهنا على سذاجته ، فكانت النتيجة أنه وقع فى أحضان الشرك المتستر بعباءة الدين ، وفى براثن الإرهاب والأطماع الاستعمارية

بدعوى تطبيق الشرعية الإسلامية ، لقد فقد شبابنا حدود شخصيته وماهيته ، فكان ما نعانى منه اليوم ضياع للهوية الحقيقية للإنسان المصرى ، كما سيتضح لنا فيما بعد .



ثانيا
أزمة الهوية

من الطبيعى أن تعتبر مرحلة الشباب من أحرج مراحل الإنسان وأخصبها فهى تمثل المنعطف بين عهدين : أحدهما يمثل الطفولة النامية ، والآخر الرشد أو التطور والتكيف .

وفى هذه المرحلة يقفز الجسد فى نموه الكمى بدرجة لم يسبق لها مثيل ، بينما يصاحب النمو الكمى هذا نموًّا كيفيًّا فى شكل الميزات التى تبرز الفروق بين الجنسين الذكر والأنثى ، فى سن البلوغ ، فيقفز معدل النمو الجسدى بحدة .

وتصاحب هذه التغيرات تغيرات أخرى . فالنمو العام والزيادة فى القوة – خاصة فى الذكور – يقابله إبراز للميول العدوانية التى تؤهل الفرد للتفاعل مع البيئة وبالتالى للعمل ، بينما النمو الخاص بالتمييز الجنسى يؤهل الفرد للاتجاه نحو مثيل له من الجنس الآخر وبالتالى للبدء فى تكوين أسرة .

والشاب يصبح قادرًا ، من الناحية الوظيفية الجسدية على كل من العمل والحب ، أى المساهمة فى الإنتاج لبناء المجتمع سواء كان ذلك إنتاجًا ماديًّا أو بشريًّا ، وهو نمو يحدث على المستوى الجسدى ، ويكتمل بسرعة تسبق الإمكانية البيئية الاجتماعية على توفير المناخ له ، وذلك لأن الإنسان ، هنا يتميز عن الحيوان ، فى اكتساب قدراته على التعامل مع البيئة ويعتمد على نقل هذه القدرات بواسطة التعلم بدلاً من نقلها بواسطة الوراثة البيولوجية ، ومن هنا فإن المطلوب من الشاب لكى يكون أهلاً بالمساهمة فى البناء الاجتماعى ، الإلمام بحصيلة من

الخبرات تحتاج إلى سنوات من التعلم تستمر ، بينما يكون الاستعداد البيولوجى قد تم .

إن هذه الفجوة بين الاستعداد البيولوجى والاستعداد الاجتماعى لهى أساس وجود مرحلة الشباب فى الإنسان بشكلها الموجود ، بدلا من وجود حالة رشد تتم فور البلوغ وبعد الصبا ، وهى أيضًا مصدر كثير من الخصائص النفسية التى تميز هذه المرحلة .

الأبعاد النفسية :

يهتز كيان الفرد حينما يفاجأ بتغيير حاد فى شكله ناهيك عن التغيير الذى يعبر عن الوظيفة (أى المشاعر العدوانية والجنسية) ، فهو يعى نفسه بدءا بجسده ككيان له استمراريته ، وقد يعى هذه المشاعر ببطء يسهل استيعابه ، لكن هذه الفجائية التى تأتى مع البلوغ تكاد تفقده وعيه بذاته ، فما كان لم يعد كائنًا ، والجديد يختلف عن القديم ، ولذلك فإن السؤال الجوهرى الذى يراوده هو : من أنا ؟ حتى يعى حاضره كحركة نحو مستقبل يخالف ماضيه .

ويصبح السؤال الجوهرى « من أنا » بشقيه الرئيسيين « ماذا أعمل » و « من أحب » يتطلب من الفرد أن يسترجع كل خبرات الماضى ، ويحاول التنبؤ بكل إمكانات المستقبل حتى يتمكن من الإجابة عليه .

ويتطلب عملية هدم وإعادة بنائه اهتزازًا شديدًا فى البنيان النفسى للفرد ، قد يصل إلى درجة الارتباك ، وإذا لم يكن البنيان سليمًا أصلاً فإن هذا الارتباك قد يعيد إلى السطح نقاط الضعف المختلفة ، التى

كانت قد انزوت حتى ذلك الوقت ، وهو الأمر الذى قد يؤدى إلى ظهور كثير من الاضطرابات النفسية فى هذه المرحلة ، بل إن الأزمات الطبيعية التى تصاحب الفرد فى مراحل نموه السابقة قد تظهر بشكل بارز ، فتبدو كالاضطرابات .

فهاهى مشكلة **الأمان** التى تركها منذ عامه الأول تعود إليه ، فالمرء فى أزماته الشديدة يحتاج إلى أن يأتمن آخر ويثق فيه بلا حدود ، أما الاستقلال الذى حققه فى المرحلة الثانية من عمره فإنه يعود إليه فى صراعاته مع أسرته بغية تحقيق استقلالية الرأى والإرادة التى تيسر له اختيار العمل الذى يريد أن يتعلمه ، والأصدقاء الذى يريد أن يخالطهم ، والفتاة التى يريد أن يتزوجها .

أما المرحلة الثالثة حيث كان يحقق إنجاز **المثابرة** ، فهو يتعلم لكى يصير شبيهًا بأبيه بعد أن تأكد فى نهاية المرحلة السابقة أنه بعيد عن منافسته ، إنه يتجاوزه حاليا بأن يعكس الاتجاه ، فهو يعود للمنافسة بهدف التشبه بأبيه ، أو يمكن القول إنه يستمر فى التشبه ولكن بهدف المنافسة ، المهم أن الاعتدال فى شبابه مرهون بدرجة الاعتدال فى الصبا ، وبالمثل فإن التطرف فى شبابه رد فعل لتطرف سابق فى صباه .

وبالنسبة لبوادر المراحل التالية ، فإننا سوف نجدها ظاهرة فى هذه المرحلة ، وإن كانت فى أشكال طارئة ، فالشباب قد يعتقد قبل الأوان أنه جاهز للزواج والاستقرار ، أى تحقيق **الألفة** ، أو قد يظن أنه قادر على صنع الحضارة والفكر ، وقيادة غيره من الشباب أى تحقيق **الإنتاج** ، أو قد يظن أنه أدرك الحكمة التى تصاحب الإنسان فى مرحلة **التكامل** .

والشاب فى عنفوان تقلباته يعيش كل مراحل عمر الإنسان . إنه يتقلب بين أن يكون طفلاً رضيعًا على طرف إلى أن يكون كهلا عجوزا على الطرف الآخر ، وفى حالة الغليان هذه قد يضع الشباب الخطوط العامة لحياته كلها بماضيها وحاضرها ومستقبلها .

الأبعاد الاجتماعية :

الطفل يبدأ ككيان عضوى تدور حوله أسرته يتلقى الرعاية المطلقة بدون توقف ، إلا أنه يتعلم تدريجيا كيف يشارك ، وكيف يعطى ويأخذ ، وكيف يكون عضوًا فى مجتمع ، وهو مجتمع الأسرة فى المقام الأول . ففى الصبا يذهب إلى المدرسة ولكن تستمر الأسرة هى محور وجوده وانتمائه .

يتغير هذا الوضع فى الشباب ، فهو هنا ، يبدأ فى الابتعاد عن الأسرة بوجدانه ، إنه يعد نفسه للانفصال التام عنها استعدادًا لأن يكون هو أسرة خاصة به ، والاستعداد هذا يتطلب منه أن يجرب مذاق الانتماء لما هو خارج دائرة الأسرة .

بالبحث عن الكبار خارج الأسرة عن بديل للأب (والأم) فنجده يمجد الشخصيات العامة ، أو التاريخية أو قادته فى المجال التربوى ممن يتوسم فيهم المثل الأعلى ، الذى يريد أن يقتدى به ويسير على خطه ، إنها ظاهرة تمجيد الأبطال ، وهو بهذا التمجيد بالتشبه أو بالتبعية يحقق هدفين : الاستغناء عن الأب الحقيقى وإيجاد بديل .

وكذلك يستبدل الشقاء فى الأسرة بجماعة من أصدقاء فى أعمال مختلفة ، وهو الأمر الذى يعيد شكل الأسرة ، فإن « الشلة » من أهم

خصائص الحياة الاجتماعية للشباب ، وفى الشلة قد توزع الأدوار بحيث يكون فيها قائد بديل للأب على هيئة « أمير » أو مشابه ، والقائد الذى يتمكن من هذا الدور يؤكد لعضو مجموعته أنه أيضًا يمكنه أن يكون أبًا ، وكذلك الأب يمكنه أن يكون بمثابه أخ ، فالقائد من سن متقارب .

ويكون هذا الكيان الاجتماعى الشكل الوسيط بين المجتمع والأسرة والكبار على السواء ، إذ أن الجماعة تتميز أيضًا بأنها على هامش المجتمع ، فهى ليست كيانًا اجتماعيًا رسميًا أو تابعًا لغيره من الكيانات الاجتماعية ، ولكنها تشكل مجتمعًا صغيرًا يكاد يعيش خارج المجتمع الأكبر ، ويكاد يشكل كيانًا متعارضًا معه ، إنها جماعات بحكم الضرورة ، لها هذا الطابع وهو الذى يجعلها تجذب الشاب الرافض الثائر ، هو أيضًا يكون قد حول رفضه وثورته من عملية عائلية أو ذاتية إلى عملية اجتماعية ، تعطيه تصريحًا لدخول المجتمع وهى بهذا تعده للخطوة التالية ، وهى الانتماء الحقيقى للمجتمع الأكبر .

هذه المكانة فى المجتمع والتاريخ ليست مجرد وهم أو لهو بل حقيقة تؤكد نفسها عبر المجتمعات وعبر التاريخ .

فالشباب هم أول من يؤيد الفكر الجديد ، وأول من يتحمسون للتغيير ويدفعونه ، وهم الذين يشكلون المستهلك لمثل هذه التيارات الجديدة فى حالة لو كان مصدرها من الكبار ، إذ أن سقراط كان يحاور من أجل أن ينمى وعى الشباب ، والإسكندر الأكبر كان شابًا

قاد جيوشًا من الشباب ، والأنبياء والرسل والصالحون أكثرهم كان يخاطب الشباب ويعتمد على تأييدهم .

مصير الأزمة :

إذن فتكوين الهوية فى الشباب تمثل أزمة حقيقية ، وهى من حدتها كثيرًا ما يصل ألمها لدرجة الشكوى ، الأمر الذى قد يسترعى اهتمام الطب ، وهناك عدة أشكال يمكن أن تئول إليها الأزمة :

١ - **الارتباك الحاد** : تداهم الفرد رغباته المتناقضة بدرجة تجعله يفقد تحكمه فيها فيرتبك ، ويعجز عن التعبير عن أى من رغباته بشكل يتواءم مع الواقع . إنه يصير قلقًا بدرجة تفقده القدرة على جمع إرادته من أجل عمل أى شىء ، بل إنه يفقد القدرة على الانتباه بحيث يعجز عن متابعة حديث ، ناهيك عن قراءة أو تفكير منطقى ، بل قد يصل الارتباك فى حدته أن يصيب تفكيره بالاضطرابات بما يقترب من الضلالات والهلاوس علاوة على التقلبات المزاجية من المرح الشديد إلى الاكتئاب ، ولذلك فإنه كثيرًا ما تختلط مثل هذه الحالات مع الأمراض الذهنية أو الجنون ، إلا أنها تختلف لكونها طارئة وسرعان ما تزول بعد فترة من الطمأنينة والتدعيم .

٢ - **التبلُّد واللامبالاة** : على النقيض الآخر للمداهمة بالرغبات المتناقضة ، نجد نتائج الكبت الشامل من تبلد فى المشاعر واللامبالاة ، فما دامت الرغبات تصاحبها المتاعب فالأفضل أن يغلق هذا الباب من أصله ، ويصير الشاب نتيجة لذلك كالآلة ، يتحرك ويتكلم بلا اقتناع

أو عمق ، إذا أطاع فإنها طاعة عمياء وبلا حماس ، وإن رفض فهو رفض بلا إيجابية .

٣ - **المغالاة فى الرفض** : هنا يتوحد الشاب مع رغباته المتعارضة مع المجتمع (النفس الأمارة) بحيث يكون منسجمًا معها متعارضًا مع المجتمع ، فهو يطلق العنان لرغباته وينقاد لها بدون تحكم ، إلا أنه سرعان ما يصطدم بالمجتمع بشكل أو آخر بدءا من الأسرة إلى الشرطة والقانون والسلطة السياسية ، وفى الحالات الأخيرة قد يجد فى بعض الاتجاهات الفكرية الثورية سندًا له (اليسار المتطرف) - على سبيل المثال .

٤ - **المغالاة فى الخضوع** : أما هنا فإن الشاب يرجح قوى التحكم (النفس اللوامة) ، فهو يغالى فى الاتجاه المضاد لرغباته ، أى يغالى فى المحافظة على قيم المجتمع ، فهو فى مواجهة رغباته العنيفة يقاومها بمثلها أو بأعنف منها . وهنا أيضًا قد يصطدم مع المجتمع بأشكاله المختلفة كما أنه قد يجد المساندة من الاتجاهات الفكرية المفرطة فى المحافظة (اليمين المتطرف وبعض الاتجاهات الدينية السياسية) .

٥ - **الحلول المتداخلة** : قد نجد أن الرغبات المعارضة للمجتمع مثلاً تتحد مع الميول المناقضة ، والمفرطة فى المحافظة ، فى توليفة واحدة ، تجعل الثورة والمحافظة فى تناسق ، فالشاب المفرط فى التدين والذى يريد فى الوقت نفسه أن يطلق لرغباته العنان ، قد يحقق النقيضين بأن يرفض القيم الاجتماعية مستبدلاً إياها بقيم

يستقيها من القيم القديمة ، فهو لا يعترف بالأطر السائدة للتعبير عن الجنس ولذا يجد فى تفسيره للدين مثلاً ما يجعله يحقق رغباته الجنسية بيسر ، وكذلك يفعل بالعدوان حينما يرفض قانون المجتمع ، ولكنه يعتدى تحت شرعية القانون الذى اختار تفسيره هو ، كذلك قد نرى التبدل السريع بين المغالاة فى الرفض والمغالاة فى الخضوع ، والمقابل السياسى لذلك نجده فى الشاب الذى ينتقل من تنظيم متطرف إلى تنظيم على الطرف الآخر .

ثالثا
الشباب المصرى
والمناخ الاجتماعى

مثلما تكون مرحلة الشباب مرحلة حرجة فى عمر الإنسان على المستوى الفردى ، فهى أيضًا يمكن أن تكون على المستوى الاجتماعى ، فالشباب في المجتمع هو التعبير عن الأمل فى مستقبل أفضل والإعداد له ، إنه الطاقة الدافعة للتجديد والمطالبة به ، وبما أن الشباب مرحلة فى التاريخ وليست منفصلة بذاتها فإنه يتحتم أن ندرسها فى إطار المناخ الحضارى المعاصر .

ويكاد يكون كل عصر مميز بما يطلق عليه فى حينها « أزمة الشباب » وهذا أمر طبيعى فى حدود ، إذ أن الشباب كما اتضح فى ما سبق ، يعبر عن النقلة الحضارية بين القديم والجديد ، والنقلة عادة ما يصاحبها حالة تأزم ، ومع ذلك فهناك نقاط فى التاريخ تكون النقلات فيها لها طابع التغير الكيفى وليس مجرد تغير كمى أو طفيف ، ومثل هذا التغير الكيفى ، إذا ما كان حادًا بدرجة أكبر فإنه يوصف بالثورة ، والثورات الحضارية فى التاريخ بارزة ويمكن تحديدها خاصة بعد الحدث أى من المنظور التاريخى .

ولذلك ، ورغم صعوبة الحكم على الحاضر من ذلك المنظور التاريخى ، يجدر بنا أن نتساءل عن طبيعة التغيرات التى تميز واقعنا الاجتماعى المعاصر ومدى انعكاس تلك التغيرات على الشباب .

المناخ المحلى :

إذا بدأنا بمصر وفى الفترة الراهنة ، فإننا نشهد تزايد الاهتمام بما يوصف بأزمة الشباب ، ولعل هناك بعض المؤشرات التى تؤكد

أن هذه الأزمة حقيقية وليست مجرد ترديد لنغمة قديمة . فالشباب اليوم ، فى ظل التزايد السكاني السريع يشكل نسبة لا بأس بها من السكان (حوالى نصف عدد السكان أقل من سن العشرين) ، ذلك فى الوقت الذى لا تلاحقه زيادة مناسبة فى مجال الخدمات التى يتطلبها الشباب من مدارس وجامعات ونواد رياضية واجتماعية ، ناهيك عن توفير العمل والسكن ، وفى الوقت نفسه نرى طفرة سريعة فى الثورة مصحوبة بتضخم اقتصادى يجعل الفروق الطبيعية فى المستوى الاقتصادى بين الراشدين والشباب تتضاعف ، إذ بينما تزداد رفاهية الراشدين تضيق الموارد المتاحة للشباب .

إذا أضفنا أن الطفرة الاقتصادية الحادة واردة من الخارج ، وليست نابعة من القـدرة الإنتاجية المحلية مما يجعلهـا غريبة عن المناخ الحضـارى ، فإن ذلك يضفى على الصفة الاستهلاكية صفة أخرى هى « الاستفزازية » والاستفزاز هنا هـو بالطبع ما يحـدث للشباب المحروم أصلاً من هذه الامتيازات ، بينما لا يفصله عنها غير نافذة زجاجية .

ما يحدث للشباب من استفزاز هنا هو إثارة وإغراء لشهواته فى الامتلاك مصحوبة بمنع عن الإشباع ، مثل هذا الإغراء بدون إشباع إنما يزيد من حدة الأزمة لديه ، فهو مشغول أصلاً بالتحكم فى رغباته ، التى تداهمه تارة ، وتربكه وتارة ترتد مغلولة مكبوتة وتارة يتحالف معها ويترك لها العنان ، وتارة ينهال عليها كبتًا ، كل هذه التقلبات بدورها تزيد من أزمته فماذا عساه أن يفعل ؟ .

إنه يريد أن يرفض ، ولكن نشأته علمته الطاعة ، والحاجة والحرمان الذى عاشه آباؤه جعلهم يعلمون أبناءهم المزيد من الطاعة ، فقد سبق الآباء أن تمردوا فى شبابهم ، ورفضوا الواقع وقت أن كانوا شبابًا منذ عام ١٩٥٢ ، ورفعوا شعارات العدل والحرية بعد القصاص ممن سبق أن ظلموا وكبلوا الحريات ، واستمروا فى ذلك الرفض المصحوب بالحلم ، ولتأكيد الذات ، مؤمنين بقوتهم واستقلالهم بدرجة عالية إلى أن انقشع الحلم ذات صباح فى يونيو ١٩٦٧ .

كانت النقلة حادة وفجائية ، فوجد الناس أنفسهم كالطير الذى وقع بعد أن طار وارتفع ، وفى لحظات الضعف هذه يبحث المرء عن قوة خارجية يستند إليها ، فكان اللجوء إلى الدين ، ففيه التاريخ المجيد وفيه المستقبل المجهول ، وفيه المعجزات التى تتجاوز الواقع الأليم ، وفيه الاستغناء عن الغرب بقوتيه العظميين وفيه معتقدات تقوم على المادة من الرأسمالية الليبرالية إلى الاشتراكية الديمقراطية والاشتراكية الماركسية .

وإذا أضفنا إلى ذلك تحولاً اجتماعيًّا آخر فى مايو ١٩٧١ حيث زادت الضربة الموجهة إلى من كانوا فى القيادة من ١٩٦٧ ، فإن الأمر هنا قد استدعى ترجيح الاتجاهات الدينية فى المجال السياسى ، فانتشر التيار الدينى شاملاً القمة والقاعدة ، على السواء ، واختلط الحلم بالواقع ، وطلب المعجزات للتعامل مع الممكن ، ذلك لأن هناك فى الجبهة على القتال ، يتكاتف شباب الجنود مع الخبراء للقتال فى مواجهة واقع قاتل لا يجدى فى مواجهة حلم ، بينما مجاورة الموت

تؤكد إيمانا بآخرة لا يمكن التعامى عنها ، فجمع هؤلاء الجنود بين العلم والإيمان ، الأمر الذى حصنهم من الإغراق فى الخرافة والخيال مثلما حصنهم ضد التمادى فى الرفاهية اللذات الحسية .

ثم تحققت المعجزة وصارت واقعًا فى أكتوبر ١٩٧٣ ، وبعدها جاء استرخاء وانفتاح سمح بنسيان الموت ، والسباحة فى خضم المتع الحسية ، وعمت الرفاهية الانفتاحية الاستهلاكية فى المجتمع ، ولكن مع الزيادة المضطردة فى نصيب القلة المحدودة وحرمان نسبى بين القاعدة ، زادت الفجوة بين القاعدة والقمة ، وبين الجمهور والصفوة ، وبين الفقراء والأثرياء ، وبين الشباب والراشدين .

ولم يصبح متاحًا إلا الدين للتغيير إن اتفق عليه ، فكان تمسك القمة بالدين بما يحث القاعدة على الطاعة والرضا .

إلا أن الشباب بطبيعته رافض ، ودائم السعى لتأكيد هويته ، وبعد أن كان لجوؤه إلى الدين كتعبير عن المغالاة فى الطاعة وترجيح قوى التحكم على التمرد ، تداخلت الرغبة فى التمرد .

وأخذت رغبته فى التمرد الشكل الخارجى للطاعة المفرطة . كان الشباب يطيع الأمير الصغير ، ولكن فى ذات الوقت يطيح بالأمير الكبير .

لقد بدأ يجد فى قيادته المحلية وسط جماعاته بديلاً عن القيادة على المستوى الاجتماعي الأكبر ، حتى يمكن بطاعته لهذه القيادات التمرد على القيادة المعلنة فى المجتمع ، كان مطيعًا رافضا ، خاضعًا ثائرًا معًا ، إلا أن ذات القدوة الوهمية أظهرت كيف أن الشباب إذا تعجل وأطاع

لم يتربع ، بل تربع فوقه شيوخ جدد ، يستقطبونه تارة ويقمعونه تارة أخرى .

وهنا تيقظ المجتمع لخطورة ما كان يسمح به ، وانقض لكى يضع حدًّا لخلط الحلم بالواقع وترك الخرافة تزدهر ، وكالوحش الذى اقترب من الموت ينقض ليقتل ويقتل حتى وصل العنف ذروته فى أكتوبر حين وجهت إلى الرأس الكبيرة القائدة للمجتمع الأكبر ضربتها .

لقد كان المجتمع حتى ذلك الوقت يسمح بالمغالاة فى الطاعة فى صورة التدين الزائد أملاً فى أن تحتوى تمرد الشباب ، فلم يجد إلا تحول التمرد نحوه ، ولم يجد المجتمع أمامه إلا أن يصحح نفسه بوضع الحدود للتمرد بحسم ووضوح ، وفى ذات الوقت الذى يراجع أخطاءه ويحد من إسرافه واستهلاكه المستفز .

إن المجتمع الذى يقول لأبنائه شيئًا ويفعل عكسه إنما يرسل إليه متناقضاته (وهو ما يعرف فى علم النفس بـ « الرباط المزدوج » أو « التناقض الإرسالى) ولا مفر من أن يرتبك المستقبل فهذا المجتمع يقول لشبابه : تدين واجعل ولاءك للآخرة ولكن فلتخضع لقوانين الدنيا فلا تتدين ، تدين وافعل الصواب ولكن لا تنبهنى إلى خطئى فلا تتدين ، تدين ولا تتدين ، افعل ولا تفعل ، ليأت طوفان الانفجار .

غير أن الانفجار لم يود بالمجتمع كله ولكن كان كالعرض الذى ينبه بوجود مرض أكبر ، والمجتمع استطاع أن يقاوم الانهيار الوارد بفضل وجود قطاعات منه فى القيادة والقاعدة تمكنت فعلاً من الجمع بين النقيضين دون إفراط فى أحدهما . فكانت تؤمن بالقيم الدينية دون

أن تغرق فى الخرافة ، وتؤمن بالقيم المادية دون أن تغرق فى اللذات الحسية .

أما بالنسبة للمناخ العالمى : فهناك ظروف حضارية عالمية توازى ما يحدث محليًّا فى مصر ، علاوة على باقى العالم الثالث ، وتعضده تارة وربما تتأثر به تارة أخرى ، فكانت ثورات الشباب تعم العالم حتى توصلت إلى قمتها فى أواخر الستينات وبعدها أخذت فى الأفول .

وكان العالم الغربى قد وصل إلى قمة نجاحه فى تحقيق السيطرة على المادة بالتكنولوجيا والسيطرة على العالم البشرى بالقوة المادية (اقتصاديًّا وعسكريًّا) ، ومع ذلك فقد كانت إرادة الشعوب المؤمنة بحريتها تتحدى تلك السيطرة ، كما كان التفاوت داخل ذات العالم العربى بين شبابه وراشديه وبين فقرائه وأثريائه يثير الشك فى ذلك النجاح ، فالقوة العسكرية المفرطة لم تعد تعنى أن أحدًا سوف يسيطر على آخر بقدر ما كانت تعنى أن العالم كله سوف يدمر ، كما أن النجاح الاقتصادى لم يعد يعنى أن طرفًا سوف يثرى بلا حدود بقدر ما أصبح يعنى أن العالم كله سوف تستنفد موارده بسبب الجشع فى استهلاكه ، علاوة على أن أطرافًا سوف تموت جوعًا وتسممًا من شدة التلوث بواسطة فضلات الاستهلاك المفرط .

ثار الشباب على القيم المادية ، فنجد واحدًا يدعو إلى قيم المحبة والأخوة والبهجة بين الناس إلى قيم العدالة والحرية ، أى ثورة خضراء فى أغلبها . رومانسية جمالية أكثر منها واقعية ، ورغم أنها لا تخلو

من تأثيرها على الراشدين إلا أنها لم تحقق الأحلام التى كانت تدعو إليها ، فقانون الواقع الذى يخضع له الراشد أقوى من الأحلام .

وكان الطابع الدينى لثورة الشباب هذه يعكس جوهر الدين لا المظهر ، ولم تكن الدعوة إلى ديانة بعينها بقدر ما كانت إلى الإيمان بالقيم العليا التى دعت إليها الأديان : قيم المحبة والعدالة والجمال ، ولما ارتدت أو هدأت هذه الثورة لم تنته إلى فراغ ، ولكن انتهت إلى الشكل الخارجى للدين دون الجوهر .

مثلها مثل نشأة كل الأديان : تبدأ بثورات وتنتهى بأشكال وطقوس جامدة ومتحجرة ، وحل الدين الشكلى محل القيم الدينية الجوهرية ، وصار الشباب منذ بداية السبعينات يتجه نحو الأشكال الخارجية للدين ، هكذا ظهرت الجماعات الدينية فى شتى أنحاء العالم ، وأخذت شكل الانعزال والانسحاب من الواقع بخلق حضارات ضيقة محدودة تتسم بالتعصب لذاتها ومعاداة غيرها ، لتتمسك بالطقوس والمظاهر والخرافة ، مثل جماعة جيم جونز الشهيرة بالانتحار الجماعى فى أمريكا ، وهذا ليس إلا ظاهرًا لما هو أعظم وأخفى ؟

هذا هو المناخ الحضارى العالمى الذى يعانى منه شبابنا ومصر تمثل أحد انعكاساته ، إلا أن مصر يمكن اعتبارها نقطة وصل حضارية بين العالم الغربى والشرقى ، كما يمكن اعتبارها رائدة للحضارات وليست مجرد تابعة تعكس بسلبية ما يدور حولها ، ولذلك فلابد للنظر إلى ما يحدث فى مصر من منظور يضفى عليه صفة الفعل وليس فقط رد فعل ، والقيادة وليس فقط التبعية .

لابد أن نبحث عن تلك المميزات التى تشير إلى الدور الريادى للشباب فى مصر ، لعل أولها أن ثورات الشباب فى مصر لم تكن مجرد انسحاب حضارى فى الخرافة ، ولكن عمل إيجابى يسعى إلى التغيير الاجتماعى ، وتحريك التاريخ إلى الأمام ، بهذا المعنى نستطيع أن نفهم كيف أن ثورات الشباب فى مصر حتى وقت قريب لم تنحرف بمثل ما حدث ولماذا لم تعد قادرة على تطوير ذاتها بما يجعلها قادرة على الريادة بتقديم الجديد ودفع المجتمع نحو التطور .

ذلك لأن هناك سيناريو مختلف للعبة بدأ يمارس منذ سنوات لتدعيم وتغذية التعصب داخل وجدان الشباب فى مصر ، ويتحد ذلك ببراعة لاستغلال جميع روافد أزمة الشباب لترسيخ أفكار هدامة ؟ محددة الأهداف والملامح .

رابعا
سيناريو اللعبة

كيف تضافرت النوايا والأسباب ؟

بتحليلنا للحركات الحماسية المختلفة التى يتطرف فيها الشباب ، نجد دائمًا أن مهاجمة المتعصبين للحضارات الغالبة لا ينتج عنه إلا توحد مع هذه الحضارات ، بل ويصبحون مع الوقت توابع لها ، وأبسط مثال على ذلك (المهدية ، السنوسية ، الوهابية) ، تلك الحركات التى قامت من أجل مواجهة الاستعمار وانتهت بالاقتراب من الدول الاستعمارية نفسها ، أما فى مصر فلا يوجد تنظيم واحد يجمع التيار الدينى تحت لوائه ، بل مجموعات متصارعة يتستر معظمها خلف شعارات إسلامية الواجهة ، لا يمكن أن تتحد فى يوم من الأيام لأن معظم أفرادها يعانون من أمراض العصر النفسية ، بما يجعلهم أعداء لأنفسهم إذا لم يجدوا عدوًّا خارجيًّا لهم .

والدول المستفيدة دائمًا من انهيار صحوتنا تعلم جيدًا أن مثل هذا الشتات التنظيمى ، لا يصلح فى يوم من الأيام أن يكون بديلاً للسيطرة على مصر ولكن يمكن الاستفادة من وجوده بشكل أو بآخر أبسطها تهديد النظام الحالى من حين لآخر لإتاحة الفرصة للمزيد من السيطرة والتبعية لهذه الدول .

لذا تضافرت العديد من النوايا لتحقيق الأطماع المستترة لأكثر من دولة مستغلين فى ذلك جميع روافد الأزمة النفسية التى يعانى منها شبابنا ، كذلك اجتمعت عوامل متعددة على الصعيد المحلى والإقليمى أدت إلى انتشار التطرف والتعصب ، بل وضم المزيد من الأتباع من بين جموع الشباب المحبط اقتصاديًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا .

فمحليا ذكرنا بشيء من التفصيل سابقًا الآثار السلبية لسياسة الانفتاح الاقتصادى فى السبعينيات وما خلفته من انتشار للفساد والبطالة والفقر ، بالإضافة إلى التفسخ الاجتماعى وفقدان المرجعية المجتمعية وانهيار النسق القيمى إلى آخر الاختلالات التى شهدها المجتمع المصرى فى العشرين عامًا الأخيرة .

أما إقليميًّا فقد كان لنجاح الثورة الإسلامية فى إيران الأثر المحفز لدى هؤلاء الشباب لإغراء أنفسهم بأن الجهاد المسلح هو الطريق المضمون لإقامة الدولة الإسلامية فى مصر ، وكان لاختيار نظام الحكم السودانى للتوجه الإسلامى الأثر الكبير للإسلاميين فى مصر عامة ، والمتشددين منهم بشكل خاص ، كما كان للمد الشعبى الكاسح لجبهة الإنقاذ الإسلامية فى الجزائر أثره البالغ على الإسلاميين فى مصر ، ثم جاءت حرب الخليج حيث أدى الغزو العراقى للكويت سنة ١٩٩٠ إلى تدخل مباشر للقوى الغربية ، متمثلة فى جيش التحالف الأمريكى الأطلسى فى الوقت الذى رفع فيه صدام حسين شعارات إسلامية لجذب تعاطف القوى الشعبية العربية التى ترفع راية الإسلام ، وتعد فى مقدمة القوى الراديكالية فى العالم العربى .

ووقعت الحرب وجرى ما جرى ، وكان الفصيل الذى خرج من هذه الأزمة مستفيدًا أقصى استفادة هو ما اصطلح على تسميته بالحركة الإسلامية ، ذلك أنها عولت على « إسلام » صدام المفاجىء لتخوض معركة (غير عسكرية) بين قوى الإسلام وقوى الغرب المعتدية ، ومن تحالف معها من أهل المنطقة .

وربما يرد كل هذا إلى ما يطلق عليه تيار الإسلام السياسى باعتباره هو الذى خاض المعركة تنظيرًا وحشدًا ووساطة ... إلخ لكن هذا التيار ما هو إلا نخبة القاعدة العريضة من الشباب المتشدد على الساحة ، والذى يطلق صرخته الأخيرة برفع شعارات الإسلام فى نضاله من أجل تغيير الأوضاع الحالية .

وإذا ما تجاوزنا هذا الربط السياسى بين أزمة الخليج وموجة التطرف والإرهاب فى مصر ، فإننا سنجد أن الربط الزمنى مؤكد حيث بدأت هذه الموجة وعلت فى أعقاب تزايد تشدد الخطاب السياسى الإسلامى أثناء وبعد حرب الخليج ، ليس فقط ضد الغرب ، بل أيضا ضد من تحالف فى تحرير الكويت مع الأنظمة الغربية خاصة مصر .

ولن نذهب هنا إلى أقصى حدود تفسير المؤامرة حتى لا يستخلص أحد أن موجة الإرهاب فى مصر ما هى إلا امتداد لتلك الحرب التى دمرت قوة العراق ، بل هى مؤامرة لدعم الإرهاب وموجات العنف التى ينافس فيها البعض الحكم فى إيران الذى يسعى الآن لبسط نفوذه على المنطقة من خلال جماعات مسلحة يدعمها ويدربها للقيام بالعمليات الإرهابية وغيرها لتأكيد تواجده على الساحة .

إذن فالعامل الخارجى من ظاهرة التطرف والإرهاب فى مصر نجده إذا ما تدبرنا ما جرى فى حرب الخليج وانعكاساته على المنطقة كلها ، لأن هذا سوف يساعدنا كثيرًا فى فهم الإطار الإقليمى العام الذى تصاعدت فيه الظاهرة ، ولن نقول نشأت ، فبداياتها تعود لسنوات قبل ذلك كما سنرى .

البدايات :

لن ننكر أن بدايات هذا التيار ليست بالجديدة علينا ، ولكننا بإصرارنا الشديد على التعامى عن مواجهتها فى حينها جعلها تشتد وتمتد لتحاول احتواء الجيل الجديد من شبابنا الذى حوله صراعه النفسى والاقتصادى والسياسى إلى دمية سهلة الانقياد .

فهناك مقولة شائعة اليوم بين من يتناولون ظاهرة التطرف والتعصب ، ويسلم بها الكثيرون على أنها حقيقة هى أن كل الفصائل الإسلامية المتطرفة منها والمعتدلة إنما خرجت من عباءة الإخوان المسلمين ، وهذا ليس موضوعنا الأصلى علينا أن نتحرى الدقة التاريخية لهذه المقولة ، ولكن ما يهمنا منها هو ما يفيدنا فى تلمس بدايات الجماعات المتطرفة المتورط فيها شبابنا الذى لم نستمع لمعاناته النفسية .

فى هذا السياق يمكن القول : إن تلك المقولة تشمل قدرًا من الصحة ، وقدرًا من المبالغة ، ذلك أن معظم الفصائل خرجت فى انشقاق عن الإخوان المسلمين ، وهذه الانشقاقات ليست كلها مباشرة ، بل هى انشقاقات عنقودية ، أى انشقاق عن المنشقين وهكذا ، فمن المعروف أن العنف السياسى لازم جماعة الإخوان قبل ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ ، وقد كتب الكثيرون عن التنظيم السرى المسلح للإخوان ، فلا غرو إذن أن يخرج من عباءتها جماعات تعتمد العنف وسيلة للتغيير الاجتماعى على عكس المنهج الذى اتبعه التيار الرئيسى ، وهو الدعوة والإصلاح الذى بلوره المرشد العالم السابق (حسن الهضيبى) فى كتابه « دعاة لاقضاة » .

إذن فالبدايات تفرعت عن جماعة الإخوان ، ولكن يجب التأكيد على أن هناك العديد من الجماعات الصغيرة التى نشأت فى السنوات الأخيرة بعيدًا عن المنشقين على الإخوان ، بل وعن جميع القيادات التقليدية للجماعات التى تعتمد العنف ، ويعد الرافد الأساسى لها هو « الجماعة الإسلامية » التى نشأت أساسًا فى الجامعات واشتد عودها فى السبعينيات وهى بعيدة عن الإخوان تمامًا نشأة وتطورًا .

حقيقة أن الجماعة الإسلامية والتنظيمات العنيفة التى نشأت مؤخرًا غير مرتبطة تنظيميا بالإخوان إلا أن تواصلاً من نوع ما بين المنشقين عن الإخوان ، وهذه الجماعة ظل موجودًا خاصة فى الفكر والمنهج ، فاستعراض سريع لانشقاقات العنف الأولى وظروفها يلقى الضوء على هذا التواصل .

حيث بدأت الانشقاقات عن الإخوان المسلمين فى السجن إبان فترة الاعتقال الطويلة فى أواسط حكم الستينات ومن الطبيعى أن يكون للسجن – خاصة لفترات طويلة – آثاره النفسية ، خاصة على مسجونى الرأى ، فالعطلة والفراغ لفترة طويلة يدفعان للخلاف بين البشر ، ويسعى كل طرف فى الخلاف لتدعيم وتأصيل وجهة نظره المخالفة ، ويبذل كل طاقاته المعطلة فى هذا الاتجاه ، وإذا استنفد خلاف ما مداه ، تتحول الطاقات المعطلة لخلافات جديدة .

وبعض هذه المجموعات السياسية التى اعتقلت لفترات طويلة انشقت إلى فصيلين ، ثم انشق كل فصيل على نفسه حتى وصل الأمر لأن

أصبح كل فرد في المجموعة فصيلا مستقلا وأحيانا يتطور الأمر حتى ينشق الفرد على نفسه (انفصام الشخصية) .

فالعناصر الشبابية إذن فى الإخوان حولت معاناتها فى السجون إلى شحنة نفسية تجاه النظام الحاكم ، ثم المجتمع كله ، واعتبرت مواقف التيار الرئيسى مهادنة للسلطات وسلميتها فى الدعوة غير مبررة ، فخرج هؤلاء ليبلوروا تيارًا عنيفًا يتخذ موقفًا معاديًا ، ليس من النظام فحسب ، بل من المجتمع كله باعتباره موافق ضمنى على هذا النظام ، ومن ثم يتحمل جانب من مسئولية اضطهادهم وتعذيبهم فى السجون .

المصـادر :

وهؤلاء الشباب وجدوا ضالتهم التى ينشدونها فى مصدر رئيسى لفكر التكفير الذى لم يكن معروفًا فى مصر على نطاق واسع ، وللمفارقة فإن الحديث الآن عن دور خارجى فى مساندة الإرهاب بالدعم المالى والتدريب والتسليح وإيواء المتطرفين يوازى تمامًا ورود المصدر الفكرى لهؤلاء الشباب من الخارج أيضًا ولكن هذه المرة التصدير تم من جنوب آسيا .

بدأ هذا المصدر الفكرى بكتابات أبو الأعلى المودودى خاصة كتاب « المصطلحات الأربعة فى القرآن » الذى كتبه سنة ١٩٤٦ ، ونشر للمرة الأولى فى مجلة « ترجمات القرآن » وتحدث فيه عن فكرة الحاكمية والمجتمع الجاهلى ، واعتمد فيه (المودودى) على كتابات (ابن تيمية) خاصة كتاب « الفتاوى » .

ومما يذكر أن (المودودى) كان أول من أنشأ ما عرف باسم « الجماعة الإسلامية » فى الهند فى الأربعينات ، ولا عجب إذن أن كتاب المودودى يصبح فرض عين على أعضاء الجماعة الإسلامية فى جامعات مصر فى السبعينات ، وأول من نقل فكر المودودى المتطرف للعالم العربى كان تقى الدين البنهانى مؤسس حزب التحرير الإسلامى سنة ١٩٥٠ وهو فلسطينى من بلدة جزيم ، وللمفارقة أيضًا أن صالح سرية مؤسس ما عرف بمجموعة الفنية العسكرية ، هو من مواليد جزيم هذه ، وقد أضاف البنهانى على فكر المودودى التركيز على ضرورة الاستيلاء على السلطة السياسية بالقوة كأولوية قصوى ، ثم بعد ذلك إقامة الدولة الإسلامية بشكل فوقى .

ومن أبرز المجموعات فى العالم العربى التى تبنت فكرى المودودى والبنهانى مجموعة (العتيبى) والتى احتلت الحرم المكى الشريف سنة ١٩٨٠ ، ويتضح هذا الخط الفكرى فى الرسائل السبع للعتيبى التى تعد الأساس النظرى لمجموعته .

ويمكن تلمس هذا المصدر الفكرى فى كتابات قيادات التنظيمات المسلحة التى برزت منذ السبعينات .

ففى عام ١٩٧٤ كتب صالح سريه فى « رسالة الإيمان » التى تعتبر الأساس النظرى لجماعة « شباب محمد » والمعروفة إعلاميًا باسم الفنية العسكرية يقول : إن المجتمعات كلها مجتمعات جاهلة كافرة بما فى ذلك المجتمع والشعب فى مصر ، فكل من ينفذ أوامر

الحكومة الكافرة طواعية دون إنكار فهو كافر ، سواء كان مخبرًا أم شرطيًا أم ضابطًا أم محققًا أم قاضيًا أم صحفيًا أم موظفًا ، وكل فرد من أفراد الشعب رضى بقوانين الدولة ولم ينكرها ووقف منها موقف اللامبالاة فهو كافر ، ولا يجوز موالاة الكفار والأنظمة الكافرة ، والقتال لتغير كل ذلك ، وإقامة الدولة الإسلامية فرض عين على كل مسلم ومسلمة .

أما شكرى أحمد مصطفى مؤسس « جماعة المسلمين » التى عرفت إعلاميًا باسم جماعة التكفير والهجرة سنة ١٩٧٧ فتقوم أفكاره على أساس تكفير المجتمع والشعب كذلك ، والدعوة إلى اعتزال ذلك المجتمع ثم العودة إليه مرة أخرى ، لغزوه بعد إعداد العدة اللازمة لإقامة المجتمع المسلم الجديد ، وقد طالب شكرى أعضاء جماعته باعتزال كافة الأجهزة الحكومية والمؤسسات والامتناع عن أداء الخدمة العسكرية ، أو قبول الوظائف العامة ومقاطعة الصلاة فى المساجد كما جاء فى كتاب « التوسمات » لشكرى مصطفى .

أما تنظيم الجهاد (الذى يعد تنظيم العنف الرئيسى حتى الآن) والذى يقوده عبود الزمر فقد وضع منظره عبد السلام فرج فى رسالته « الفريضة الغائبة » الأساس الفكرى له : كل نفر من أمراء العسكر ، وغير الأمراء فحكمه حكمهم وفيه من الردة عن شرائع الإسلام بقدر ما يرتد من شرائع الإسلام ، وأن القتال فرض عين على كل مسلم .

وربما كان هناك من يخشى الدخول فى هذا النوع من القتال محتجًا بأن الذين يواجهونه هم جنود فيهم المسلم وفيهم الكافر ، فكيف يقاتلون المسلمين ، فالرد على ذلك من جانب فقهاء هذه الجماعات المتطرفة ، إن من شك فى صحة هذا القتال هو أجهل الناس بدين الإسلام ، فحيث وجب قتالهم قوتلوا ولو كان فيهم المكره .

تلك هى الشجرة التقليدية للعنف المنشق عن الإخوان ، يمثل فرعها الرئيسى تنظيم الجهاد ، الذى كلل عنفه باغتيال الرئيس الراحل محمد أنور السادات فى أكتوبر سنة ١٩٨١ وتم سجن معظم قياداته (لا يزال عبود الزمر وكرم زهدى فى السجن حتى الآن) ، ولكن هذا الفرع الرئيسى ظل رافدًا لعدد من التكوينات الصغيرة على هامشة بعضها طالته حملات الأمن (صفوت عبد الغنى) والبعض الآخر لا يزال خارج السجون حتى الآن .

وفى السنوات الأخيرة برزت على الساحة عدة تنظيمات بعيدة إلى حد ما عن القيادات التقليدية للتنظيمات العنيفة ، وبدأت العمل مستقلة وإن اعتمدت على نفس الأساس النظرى والفكرى ، تلك التنظيمات كما سبق الإشارة رافدها الأساسى « الجماعة الإسلامية » ويرجح أن تكون هذه التكوينات هى المسئولة بشكل أساسى عن حوادث الإرهاب والعنف فى العامين الأخيرين .

فقد تركز الجهاد الرئيسى لتنظيمات العنف الدينى التقليدى على عمليات الاغتيال السياسى (تأسيًا بمنهج التنظيم السرى للإخوان المسلمين ، حيث لا تزال الصلة الفكرية قائمة إلى حد ما) .

ويختلف هذا المنهج عن العنف الذى تشهده مصر الآن والذى يتميز بالهجوم المباشر على أفراد الشعب والشرطة وعناصر الأقباط بالصعيد ، ثم انتقل لمرحلة متطورة من الهجوم على المصالح الاقتصادية الحيوية التى تؤذى كيان الدولة (السياحة) .

هذه الموجة الجديدة إذن والواسعة النطاق تختلف منهجًا وتكتيكًا عن عمليات الجهاد ، ولا عجب فى ذلك فمعظم البيانات التى تصدر بعد كل عملية توقع باسم « الجماعة الاسلامية » .

ولهذا تستحق هذه الجماعة إلقاء مزيد من الضوء عليها ، فقد بدأت وانتشرت فى الجامعات المصرية فى أواسط السبعينات ، دعمها نظام الرئيس السادات لضرب الشيوعيين والناصريين (يشهد على ذلك ما كتبه اللواء حسن أبو باشا وزير الداخلية السابق فى كتابه الأخير) ، ثم انقلبت هذه الجماعة على الرئيس السادات بعد زيارة القدس واتفاقيات كامب ديفيد .

وكانت هذه الجماعة تعد كوادرها نظريًا بشكل جامد حيث كان ابن تيمية والمودودى وسيد قطب أبرز رموزها الفكرية ، أما النشاط فتركز فى الجامعات ومنتدياتها ، ثم انتقل اهتمامهم للقضايا العامة والتعامل معها بالتظاهر وأشكال الاحتجاج السليمة نوعًا ما ، وبعد اغتيال السادات طال الجماعات خاصة العناصر النشطة منها — التى لم تذهب للإخوان أو « تدجن بأى شكل — عسف السلطات وقمعها ، ودخل معظمهم المعتقلات ، ليعانوا التعذيب والقهر ، ليتحول من فى الخارج إلى حمل السلاح .

الظاهرة :

من الطبيعى أنه لا توجد فى الكون ظاهرة أحادية الجانب ، فالظواهر فى أغلبها متعددة الجوانب ، لذا لا يمكن إرجاع موجة العنف الأخيرة لما سبق فقط .

بل هناك العديد من العوامل التى تتقاطع فى توافق زمنى لتساهم فى بروز أى ظاهرة ، ويمكن إيجاز هذه العوامل فيما يلى :

أولاً : سبق الإشارة لبعض **العوامل المحلية** المتعلقة بالمناخ العام الذى يفرز العنف بأشكاله المختلفة خاصة العوامل الاقتصادية والاجتماعية والنفسية ، أما من الناحية السياسية فتجدر الإشارة هنا إلى تزايد المعارضة السياسية للنظام نتيجة عمليات التكيف الهيكلى ، التى يمليها صندوق النقد الدولى والبنك الدولى ، وتمس القطاع العريض من الجماهير المحرومة التى تعانى اليوم فى المجتمع المصرى من الفقر الذى يصل غالبًا إلى حد الكفاف ، كذلك كنتيجة لتضخم سجل النظام فى عمليات العدوان على الحريات السياسية والنقابية وخلافها ، المستتر من حقوق الإنسان .

ومن ثم أصبح هناك مصلحة لدى العديد من القوى السياسية فى إقلاق النظام ، واستنزاف قواه آخذين فى الاعتبار مدى القبول الشعبى فى ذلك والمستند إلى التذمر من سياسات الحكم فالأزمة التى تعانى منها الآن لم تكن يومًا أزمة دين (بدليل الجرعات الدينية المكثفة فى الإعلام فى السنوات العشر الأخيرة) بل هى أزمة وجدان تعمدت سياسة الدولة من تفريغه سياسيًا .

أما العوامل الإقليمية والدولية ، فيمكن إيجازها فى عاملين رئيسين : تصاعد المد الإسلامى الراديكالى فى المنطقة ، والضغوط الدولية (العربية والمطامع الأمريكية) على النظام للقبول بترتيبات جديدة للمنطقة ، وخصوصا ما بعد حرب الخليج وهناك عامل ثالث قد يبدو ثانويًا رغم أهميته يتمثل فى نهاية الجهاد الأفغانى ، وتفرغ العناصر العربية المشاركة فى ذلك الجهاد والمتمركزة فى بيشاور بباكستان لنشر مبادئها لتوسيع منطقة نفوذها .

وعلينا ألا ننسى شعور إيران بتقلص نفوذها فى المنطقة بعد حرب الخليج ، والترتيبات التى صيغت بعدها بالإضافة للدور الذى لعبته مصر والمناوئ لإمكانية وجود دور لإيران فى هذه الترتيبات ، هذا بجانب اختيار نظام الحكم فى السودان للتوجه الإسلامى ، ومن ثم تدعيم علاقته بإيران .

كما كان لتصاعد دور جبهة الإنقاذ الإسلامية فى الجزائر وبروز المقاومة الإسلامية فى فلسطين المحتلة العامل المحفز للراديكالية الإسلامية فى مصر .

وحتى تكتمل نظرتنا يكفى أن نذكر انه أثناء أزمة الخليج وبعدها مباشرة كانت مراكز البحوث وصناعة القرار (خاصة فى الولايات المتحدة) ، تناقش إمكانية التعويل على الحركات الإسلامية فى المنطقة كبدائل للأنظمة الحالية إذا ما فشلت هذه الأنظمة فى حماية المصالح الأمريكية أو استنفدت رصيدها من المصداقية لدى شعوبها .

لذلك فتح الأمريكان قنوات اتصالاتهم (السرية) بالتنظيمات الإسلامية - المعتدلة والمتطرفة - فى المنطقة خاصة فى مصر وكان اندلاع الحرب الأفغانية والغزو السوفيتى لأفغانستان فرصة سانحة لتعاظم الدور الأفريقى فى تغذية هذه التيارات ، والتى التقت فى هذه النقطة عند تقديم ما يسمى « بالمجاهدين العرب إلى أفغانستان » لدعم ما يسمى « بالنضال الأفغانى » فى ذلك الوقت .

الأمر الذى فتح الباب تمامًا أمام نزوح عدد كبير من قيادات هذه الجماعات وعلى وجه الخصوص « الجهاد » « والجماعة الإسلامية » وبعض من عناصر الإخوان المسلمين للتدريب على السلاح فى بيشاور والانطلاق إلى أفغانستان بمباركة أمريكية بل ودعم وتمويل من CIA.

الأمر الذى مكن هذه التيارات من اكتساب خبرات قتالية جديدة فى أرض معركة جاهزة « أفغانستان » ووسط هذه المعركة جرت عمليات التجنيد والتنظيم والتسليح لكافة العناصر التى كان يجرى إرسالها بشكل منتظم من نيويورك ونيوجرسى مركز تجمع الأصوليين العرب فى الولايات المتحدة والذى لعب فيها دورًا محوريًا كلا من « أبو حليمة ومصطفى شلبى » الذى كان مجندًا لحساب المخابرات الأمريكية فى ذلك الوقت قبل مقتله على يد الجماعة الإسلامية بمشاركة فاعلة من المخابرات الأمريكية وأعوان عمر عبد الرحمن .

وفى ضوء هذه التطورات جرت عمليات تصدير الإرهاب إلى مصر والدول المؤهلة لذلك ومنها تونس ، والجزائر والسودان ، إذ أنه ترفع المخابرات المركزية يدها عن دعم الأفغان وتملكها لمعدات قتالية ومقاتلين

مدربين على مستوى عال ، أصبح هؤلاء فى موقع المرتزقة الذين يمكن تأجيرهم لأى من الجهات التى تريد ، وبغض النظر عن الدوافع الخلافية التى تقود هذه الجماعات مع الحكومة المصرية إلا أن هناك جانبًا هامًّا يكمن وراء الإسلامبولى هذه الكفاءة والإمكانية خاصة مع توافر المناخ والعداء الكافى لإحداث مواجهة دامية فى مصر ، فقد كان لوجود شوقى الإسلامبولى شقيق خالد الإسلامبولى الذى تزعم عملية اغتيال السادات فرصة كافية للإسلامبولى لاستثمار هذا الموقف لتنظيم العديد من العرب والأفغان للانسياق فى مواجهة عسكرية مع الحكومة المصرية ، وتظل مسألة تصدير هذه العناصر من أفغانستان وباكستان أحد المصادر الأساسية لإحداث مزيد من القلاقل وتصعيد الإرهاب فى مصر باعتباره ظاهرة جديدة .

وفى وقت لاحق بدأ الفرنسيون فتح قنوات اتصال مع هذه الحركات ، خاصة جبهة الإنقاذ فى الجزائر إلى أن حسم الأمريكان الأمر بتجاهل هذه الحركات وعدم التعويل عليها كمحاولة منهم لإثناء الفرنسيين عن جهودهم .

وقد شهدت أسبانيا لقاءات متعددة بين الخبراء الأمريكيين والفرنسيين فى مجالى الشرق الأوسط ، والحركات الإسلامية ، ومن البديهى أن ما فعله الأمريكان مع الفرنسيين ما هو إلا أحد الألاعيب المعروفة من جانب الولايات المتحدة للانفراد بإقامة العلاقات وحدها مع هذه الحركات ، بحيث إذا ما وصلت للسلطة فى أى بلد فى المنطقة يكون للأمريكان وحدهم القدرة على احتواء الموقف .

وفى هذا السياق يمكننا أن نتصور كيف لعبت المخابرات الأمريكية بالتعاون مع المخابرات البريطانية والألمانية دورًا فى نقل الشيخ المزعوم عمر عبد الرحمن لأمريكا ، وتسهيل سفر العديد من المتطرفين المصريين إلى الغرب .

وبقية الأحداث لن نستطرد فى سردها حيث أننا نتابعها يوميًّا من خلال الصحف ووكالات الأنباء .

ونعود فى النهاية لنؤكد أن ما يحدث عالميًّا ما هو إلا تصدير للأزمات التى يعانى منها الغرب نفسه وهو فى حالة بحث دائم عن تربة ممهدة ، لاستقبال نفاياته إليها ولن يجدوا أفضل من مصر فى الوقت الراهن ، لتصدير أزمتهم إليها ، طالما يصر النظام الحاكم على عدم امتصاص ثورة الشباب التى ستنفجر بأى شكل من الأشكال نتيجة ما يعانون من فقر وبطالة وسطحية وإهمال .

إرهابيون .. ولكن !



خامسا
نريدها خطة شاملة

نخلص مما سبق إلى أن ما يحدث فى بلادنا اليوم ما هو إلا إفراز للأزمة النفسية والروحية ، التى يعانى منها العالم كله بمختلف فصائله وتياراته ، ومصر لن تكون الاستثناء فى هذه الأزمة بل على العكس ، لقد أصبحت مكانًا خصبًا لتصدير جميع أزمات الحضارات الغالبة إليها .

والشكل الدينى هو أنسب الأشكال التى تتلاءم وطبيعة وظروف المجتمع المصرى ، حيث تتحول ثورة الشباب إلى الجهاد داخل حزب الله ، لمواجهة حزب الشيطان بكافة صوره ، ومما يتيح لهم مزايدة السلطة الحاكمة على جميع التيارات الأخرى باسم الدين لتحقيق التوازن التى تراه فى صالحها على مستوى القوى السياسية .

وكنتيجة حتمية لسوء الأوضاع الداخلية ، وحالة الشعور بالكراهية الشديدة للتبعية للغرب داخل نفوس الشباب ، بدأت موجات التعصب والعنف حيث لا نضوج للفكر أو للعقيدة ، ولكن مزيدًا من التحدى الأعمى والانفعالى للأحداث الجارية فى الداخل والخارج على حد سواء .

لذا نجد التطرف فى مصر ينطوى على صيغة انفعالية عنيفة وصلت إلى حد استخدام السلاح للتخريب كرد فعل لتدنى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية الذى بلغ حد التناقض المبالغ فيه فى المستويات التركيبية للمجتمع .

وهذا قد يفسر لنا لماذا ينتمى أغلب الإرهابيين فى مصر إلى المستويات الدنيا فى السلم الاجتماعى ؟ ولماذا هم مدفوعون إلى انتهاج سلوك بالغ العدوانية ، تجاه أنفسهم والمجتمع فى آن واحد .

مما جعلنا نحن أيضًا لا نملك – **فى المدى القصير**– غير أسلوب المواجهة الأمنية الذى طالما حذرت الصفوة المثقفة فى مصر من احتمالات حدوثه وعواقبه ، ولكن بعد أن أصبحنا جميعًا فى بوتقة هذه المواجهة التى لا مناص منها ، لابد وأن نلفت نظر رجال الأمن إلى توخى منتهى الحذر فى معاملة هذه العناصر الإرهابية ، وأيضًا ضرورة تغيير هذه الأجهزة الأمنية من أسلوب العقاب الجماعى الذى يأخذ البرىء مع المتهم حتى لا يقع مزيد من الضحايا – فكلا **الطرفين** من أبناء مصر – ومن الواضح حتى الآن أن المعالجة الأمنية لأحداث العنف والإحصاءات فى مصر لم تجد نفعًا كثيرًا ، فرغم تصاعد عدد القتلى ، وحملات الدهم والتمشيط والاعتقال ، فالعنف لم يتوقف ، بل يزيد ، وكل يوم يمر يعتمد فيه المجتمع الحل الأمنى فقط « لاستقبال » هؤلاء الشباب ، تتحول المشكلة أكثر فأكثر إلى علاقة ثأرية بين الشرطة والمتطرفين ويدخل المجتمع كله فى دوامة العنف والعنف المتبادل .

ومع استمرار تلك الحلقة المفرغة يتفنن المتطرفون فى الجديد ، ليس فقط هجومًا على رجال الأمن واستيلاء على أسلحتهم ، بل بحثًا عن سبل إيذاء الحكومة وإضاعة هيبتها ، وفى ذلك إيذاء للمجتمع كله ، خاصة حين يتعلق الأمر بتخفيف مورد هام من موارد الثروة فى مصر (السياحة) .

وبعد أن نجحت هجمات المتطرفين على السائحين ، يفكر هؤلاء الآن ، ويعلنون فى بيان رسمى أن نيتهم استهداف الاستثمارات الأجنبية فى مصر .

هذا التخطيط لضرب موارد الدخل والتنمية التى تعتمد خطط التكيف الهيكلى فى مصر ، لا يمكن أن يكون مجرد « طيش متطرفين » ، بل عقول تفكر وتخطط ، واعية إلى حد كبير بقضايا الاقتصاد والسياسة عامة وفى مصر خاصة . ومريضة إلى أقصى درجة من حيث التركيبة النفسية .

وتلك الرءوس لها أذرع تحمل السلاح ، ومهما كانت الشدة والصرامة تجاه هذه الأذرع . فإن الرءوس تجتذب غير الذى يسقط ، والروافد متعددة والأسباب التى تدفع تجاه العنف والإرهاب موجودة وفعالة ، من هنا كان ضرورة اعتماد أساليب أخرى للتعامل مع ظاهرة العنف والتطرف ، غير الأسلوب الأمنى .

ونحن هنا لا ننفى أو نقلل من أهمية هذه المواجهات الأمنية فى الوقت الحالى ، ولكن ما نرجوه هو تعديل الأسلوب المتبع فى هذه المواجهة ، فالحل الأمنى لن يؤتى بثماره عن طريق القبض العشوائى على الأبرياء والزج بهم فى غياهب السجون دون ذنب واضح ، ولن يتم بمعاقبة قرى بأكملها بتجويع وتشريد أهلها .

أما بالنسبة **للحلول طويلة الأجل** : والتى يجب أن نضعها فى الحسبان منذ هذه اللحظة ، فلابد أن تكون شاملة ومتكاملة ، ومتصلة الحلقات تسير بشكل متوازن ومتزامن ومتوازٍ (سياسية ، اقتصادية ،

اجتماعية ، تعليمية ، دينية ، أمنية ، ثقافية .. إلخ) ، وأن تشارك فيها كل مؤسسات الدولة وأجهزتها الرسمية والشعبية ، وأن يكون الشباب هو المساهم الفعلى والأساسى لهذه الصحوة المنتظرة ، حتى نقلل من مساحة العنف بداخلهم الذى وصل بهم إلى حد عدم الانتماء لهذا البلد .

فعلى الصعيد السياسى : لابد من توسيع أطر الديمقراطية والمشاركات الفعلية بين الأحزاب السياسية القائمة ، فمما لا جدال فيه أن ضعف النشاط الحزبى فى الشارع المصرى قد ساهم بشكل فعال فى انفراد الجماعات المتطرفة بالساحة ، خاصة وأن الأحزاب الموجودة حاليا محكومة بقوانين غير معلنة وصارمة يصعب الخروج عليها ، فى مقدمتها إسقاط مبدأ تداول السلطة بين الأحزاب مما ينسف الديمقراطية من أساسها ، بل ويؤدى بطبيعة الحال إلى تفريغ الوجدان المصرى من أى فكر سياسى ، وإلى فقدان الثقة فى برامج وأهداف الأحزاب الموجودة كلها بلا استثناء .

لا سبيل غير إطلاق حرية الأحزاب حتى تتكافأ الفرص أمامها جميعًا بدلا من انفراد الحزب الواحد بالحكم حتى يمكن لكافة القوى الوطنية والحزبية والمهنية ، وأيضًا رموز التيار الإسلامى المستنير أن تقوم بدورها الحقيقى داخل الشارع المصرى ، حيث أدى غياب الدور الفعلى للأحزاب والأجهزة الشعبية الأخرى إلى استشعار القوى الشبابية أنها مجرد أداة تنفيذ فقط ، لا تستطيع المشاركة فى التخطيط وصنع القرار العام .

علينا إذن تنقية المناخ السياسى وترسيخ أعمدة الليبرالية الحقيقية دون شعارات زائفة ، تتساقط فى مهب الرياح مع بدايات كل أزمة نمر بها ، إن مزيدًا من المصارحة والمشاركة الفعلية بين السلطة الحاكمة والشعب ، لن يفقد هذه السلطة هيبتها كما تظن ، بل سيساعدها كثيرًا أن ترسو بسفينتها إلى بر الأمان .

فغياب المشروع السياسى المتكامل والمقنع والبديل والمعبر عن استراتيجية المرحلة المقبلة سيساهم فى إحداث مزيد من الانقسام فى المجتمع المصرى ، الذى يمكن أن يصل إلى حد البؤر المتناثرة بين جماعات أصولية راديكالية ، وجماعات أصولية معتدلة ، وكلهم يصبون فى بوتقة واحدة أساسها الصراع السياسى الطويل الأمد مع الحكومة المصرية .

ومن ثم يصبح من الضرورى بلورة مثل هذا المشروع الذى يجب أن يشتمل على رؤية متكاملة ، تشارك فيها طاقة التيارات والرموز السياسية صاحبة المصلحة فى صياغة مستقبل هذه الأمة .

أما على الصعيد الاقتصادى : والذى لا نستطيع أن ننكر أنه من أهم أسباب تفجير وتفشى هذه الظاهرة التى تكمن فى مجمل الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، وتأتى فى مقدمتها البطالة والغلاء ، وتضخم التناقضات الاجتماعية الأمر الذى ساهم فى تنامى الشعور بالإحباط على مستوى الفرد ، والسخط على الجماعة ، بل وأدى أيضًا إلى التلاعب باسم الدين والتستر بعباءته لتحقيق قدر من العدالة الاجتماعية .

مضافا إلى هذا الكثير من الآثار السلبية التى ترتبت على ما سمى بسياسة الانفتاح الاقتصادى وإعادة هيكلة الاقتصاد المصرى التى أتاحت الفرصة لظهور فئات جديدة أثرت بشكل سريع ، حققت ثروات طائلة دون جهد محدد أو إضافة حقيقية للاقتصاد القومى بل على العكس ساهمت فى انتكاسته .

لا مفر من حتمية العلاج العلمى والفورى لكافة المشكلات الاقتصادية والاجتماعية ، خاصة المتعلقة بالإسكان وما يرتبط به من مرافق وخدمات أساسية ومشكلة البطالة بين الشباب ، وفى الوقت ذاته محاولة القضاء على الفئات التى أفرزتها فترة السبعينات ، وملاحقتها أينما كانت .

ولما كانت المناطق العشوائية والمتخلفة هى التربة الممهدة لتفريغ الجريمة والعنف ، لذلك فعلى المسئولين يقع عبء إقامة الحوار مع سكان هذه المناطق للتعرف على نوعية مشكلاتهم وإمكانية حلها ، بل والدخول الفعلى فى مشروعات عملية لحل هذه المشكلات بداية بإعادة التخطيط لهذه المناطق ووصولاً إلى إيجاد فرص عمل لشبابها .

ويكفينا هنا أن نذكر أن ما يقرب من ٦٠٪ من الشعب المصرى ، يسكن هذه الأحياء حتى نستوعب مدى أهمية هذه الخطوة فى حل أزمتنا الاجتماعية ، وأبسط الأدلة على ذلك ما حدث فى إمبابة من أحداث حين سيطر أحد المتطرفين عليها أثناء غياب أجهزة الدولة عن وجود مثل هذه المنطقة الآهلة بالسكان .

الإصلاح الشامل أصبح نتيجة حتمية ولم يعد مطلبًا خاصًا فقد آن الأوان لأن نفيق ونفهم مدى الترابط العضوى الوثيق بين جوانب الأزمة التى نمر بها ، خاصة إذا ما علمنا أن هناك أكثر من ثلاثمائة منطقة عشوائية حول المدن المصرية الكبرى تستأثر القاهرة الكبرى وحدها منها بحوالى مائة وسبعين منطقة .

والتى اتخذ منها الإرهابيون نقاط انطلاق أساسية بما يشكل الطوق المضروب حول العاصمة .

وبالنسبة للإعلام : بكل ما فيه من افتقار لاستراتيجية واضحة ومحددة غير التفانى فى عرض السلع الاستهلاكية وبعض الأعمال التى تعمل بشكل مستفز للقضاء على صورة القدوة الحقيقية داخل مجتمعنا ، مضافا إلى ذلك أسلوب التعتيم والتعمية على جميع الأحداث الهامة مما أفقد المواطن البسيط ثقته فى جميع المواد المقدمة إليه من خلال الأجهزة المعنية بذلك .

ولن نجد ما نقوله هنا سوى ضرورة كف وسائل الإعلام عن تقديم أو بث هذا الكم الهائل من المواد الهابطة لغة وفكرًا وفنا والتى تعمق الشعور بالظلم والإحباط وإثارة دوافع العنف والعدوان .

وأيضًا أن تلتزم هذه الأجهزة الحذر عند تقديمها للدعاة ورجال الدين الذين أصبحوا يمثلون الخطر الأكبر على فكر العامة وخاصة ، إنهم فى سبيل إرضاء بعض الدول العربية بالتحديد ومراعاة لما تنشره من أفكار تفرغ الإسلام من جوهره ، لا يراعون الله فيما يطرحون من قضايا ودعاوى وفتاوى وأحكام كلها تعمل على تغييب عقل الإنسان

المصرى ، وتزييف وعيه بأفكار ومعتقدات ليست من الدين فى شىء ، لأنها تنتهى بهم إلى التواكل الفكرى والبعد عن الرؤية السليمة ، والمواجهة الحقيقية لمتاعب الناس ومشكلاتهم علمًا بأن تأثير رجل الدين شديد الخطورة ، لأنه موجه إلى جمهور أغلبه من الأميين وفقراء المعرفة والثقافة ، وأبسط مثال على ذلك طرح قضايا : مثل الزواج والإنجاب من الجن ، والسحر والسحرة ، تأثيم وتحريم سفر المرأة للدراسة والعمل بغير محرم وإن كان السفر إلى الإسكندرية .

إن مجرد طرح الكثير من القضايا الغيبية على هذا النحو هو أمر بالغ الخطورة على عقلية المتلقى ، وأيضًا يجب أن تكف أجهزة الإعلام عن استضافة بعض الدعاة الذين لا يكفون عن الغمز واللمز والمقارنة بين الإسلام وغيره من الأديان ، بل ويتمادون فى إصدار الفتاوى الغريبة الخاصة ببناء دور العبادة لغير المسلمين ، مما أفسد العلاقة بين المسلم وجاره من أصحاب الديانات الأخرى ، فهذا التحريض الصريح لن يفرز إلا المزيد من الكراهية بين أفراد الشعب وبعضه .

ما نريده من الإعلام هو أن يقوم بدوره الريادى فى حركة التنوير داخل المجتمع ، وأن يتاح للجميع الحوار والمناظرة العلنية مهما كان الخلاف فى وجهات النظر .

فقديما قال الإمام الشافعى :

« ما ناظرت أحدًا قط فأحببت أن يخطئ ، وما كلمت أحدًا وأنا أبالى أن يبين الله الحق على لسانى أو على لسانه » .

ونستطيع القول وفقًا لما طرحناه مسبقًا ، أن أجهزة الإعلام تعانى إن صح التعبير « حالة فصام » إذ أنها فى الوقت الذى تسعى فيه إلى لعب – دور تنويرى بقدر الإمكان – وإعطاء الفرصة لرجال الدين المعقولين للحديث عبرها إلا أنها على الجانب الآخر تقدم نماذج متناقضة مع هذه السياسة ، متمثلة فى برامج بلا هوية وجرعة إعلانية ضخمة ، تسهم فى تصوير عادات استهلاكية بالدرجة الأولى بل وتطغى على كل قيمة فكرية يمكن أن يقدمها برنامج هذا أو عمل إعلامى هناك .

رغم أن مهمة الإعلام هى البحث عن الحقيقة ، والتعريف بها لذا يجب أن نتبع أسلوب المصارحة بالحقائق مهما كانت ، وأن تتاح الفرص وتتكافأ أمام ممثلى الأحزاب للإدلاء بآرائهم ، وطرح مشكلات المجتمع الحقيقية حتى تصبح المصداقية هى الرسالة الإعلامية التى نرجوها ، فالمزايدة باسم الدين لن تؤتى ثمارها خاصة وأنها تتم عن طريق التلقين دون السماح بالنقاش أو الجدال حتى أصبح أقصى ما يمكن أن يفعله المتلقى ، هو هز رأسه كدليل على الاستحسان أو ترديد عبارة (الله يفتح عليك يا مولانا) ، هكذا ندمر بأنفسنا عقول أبنائنا ، وعلينا أن نستدرك الأمر قبل أن يبتلعنا جميعًا طوفان الجهل .

وعلى المستوى الثقافى : الذى نفتقر فيه إلى الهوية الثقافية للمجتمع ، بات لزامًا علينا تعميق المضمون الحضارى والوطنى لثقافتنا من خلال تحقيق التواصل بين التراث الثقافى الخصب ، وما يناسبنا من تحديث ، وأن نجعلها صحوة بين الأدباء والفنانين لعمل المزيج

الثقافى للمجتمع المصرى فى صيغة ، تجمع بين الأصالة والمعاصرة ، ومع التأكيد على دور السينما والمسرح فى تنمية الثقافة وبناء الحضارة .

وأهم من ذلك كله دعم الموقف الفكرى المستمر الذى يقبل الرأى والرأى الآخر ومنطق الجدل والحوار فالأصل فى التحاور بين صاحب الرأى وخصومه ، هو أن يكون الحوار وسيلة لتوسيع مدارك المتلقى ، وتنمية معارفه ، لكن الملاحظ بوجه عام أنه كلما كان هناك خلاف فى الرأى حول أمور تتعلق بالدين تحديدًا يصعب على جميع الأطراف مناقشتها بهدوء دون انفعال ودون تكفير أو سباب .

إننا لن نرتقى بوعينا وثقافتنا إلا إذا كان هناك إمكانية حقيقية من الحوار الفعال المجدى بين فصائل المثقفين المختلفة وبين رجال الدين ، حتى يمكننا القضاء على الفئة المرتزقة التى تتكسب من وراء تضليل الشباب - المسطح فكريًا - بتوجيه وإيحاء من جهات خارجية تعمل لحسابها .

إن حركة التنوير لابد وأن تخترق قلب حياتنا اليوم ، حتى تستطيع التغلب على عادات فكرية وسلوكية متعصبة وجاهلة أصبحت تسيطر علينا عبر سنوات القهر والخرافة وسيادة الغرب ، وسيطرة نماذج تافهة على عقولنا حتى نالت من لغتنا وفكرنا وثقافتنا .

وقد أصبح على المثقفين اليوم أن يختاروا بعناية اللغة السليمة التى يجب أن يخاطبوا بها المتلقى البسيط ، حيث صارت لغتهم تتأرجح بين قلة تصر على الإسفاف ، وأخرى راقية ، متعالية ، تلتحم

بمشكلاتهم من خلال أبراج عاجية مما يضع آلاف الحواجز بينهم وبين المتلقى ...

وعلى الطرف الآخر نجد بعض المؤسسات الدينية قد بدأت فى التدخل فى معظم الأعمال المنشورة ، حتى بلغ بها الأمر حد المصادرة ، وإصدار الأحكام العشوائية بتكفير وإلحاد هؤلاء المثقفين وصارت فتواهم ذريعة يتخذها المتطرفون لتبرير حملهم السلاح فى وجه المفكرين ورواد حركة التنوير فى مصر ، ولا يزال مقتل د . فرج فودة عالقًا فى الأذهان حتى الآن . هذا وفى نفس الوقت الذى تتهاون فيه هذه المؤسسات فى مراقبة الكتب وشرائط التسجيل التى يروجها البعض وتدعو كلها إلى التعصب والتطرف وتكفير المجتمع والثورة على الأقباط .

العبء الأكبر اليوم يضع على عاتق مثقفينا ، لدراسة ما نحن فيه من أوضاع متردية ، وحالة سيئة فى مختلف النواحى ، عليهم أن يجتمعوا ليعرفوا ما هم فاعلون فى هذه المرحلة الحرجة التى تحتاج منهم إلى توحيد كلمتهم وآرائهم ووقفتهم الجريئة أمام الأفكار الهدامة التى تسللت إلى عقل وقلب شباب مصر .

إذن المثقفون أصحاب الدور الريادى منهم مدعوون إلى بلورة مشروعهم الثقافى المستقبلى ، فى إطار المشروع الكبير الذى أشرنا إليه انطلاقًا من أنه لا يمكن بأى حال من الأحوال الخروج من هذه الأزمة – أزمة إعادة هيكلة المجتمع فكريًا – دون ما التسلح بهذا المشروع الواضح القائم على أساس التنوير ليس بمعناه الغربى حتى لا تكون

هناك سياسة – ضيقة الأفق – ولكن على أساس هضم إعادة صياغة وجمع الأفكار والتجارب والتراث الفكرى لهذه الأمة حتى يصبح هو الدليل التنويرى لنا – إن صح التعبير .

وفى الوقت ذاته فإن **جهازنا التعليمى** ليس بأفضل بل على العكس يسير فى **خط مواز** للجهاز الإعلامى والمؤسسات الثقافية فى بلدنا ، فنظرة واحدة للمناهج التعليمية كافية للتدليل على ما تحتويه من سذاجة وسطحية وإصرار على إلغاء دور العقل تمامًا لدى الطالب ، حيث نجد معظمها موادًّا للحفظ وليست نواة للاستيعاب والإدراك والاستنتاج ، حتى المواد الدينية أصبحت مليئة بالنصوص والتفاسير والشرح التاريخى الهامشى دون الخوض فى القيم الروحية للدين التى تعتبر الأساس الحقيقى له .

وعلى العكس تمامًا مما هو متوقع من دراسة المناهج التعليمية ، نجدها تدفع بعقول الصغار إلى التحجر وفقدان القدرة على الابتكار والإبداع ، إن بذور التطرف قد تسللت إلى أبنائنا ، لأننا لم نتعامل معهم كبشر يعقلون .

ولم نحاول يومًا أن ندمج أقيم ما قدمته الرسالات السماوية لنا من تعاليم ليدرسها أطفالنا كلهم بلا استثناء أو تفرقة ، حتى يتعلم المرء كيف يحب ويحترم عقيدة أخيه بدلاً من تجاهلها الذى يصل إلى حد التعالى عليها فى معظم الأحيان ، وكأن الطريق إلى الجنة لن يتم الوصول إليه إلا على جثث أصحاب العقائد الأخرى ، لماذا نصر على تجاهل المضمون الحقيقى فى مناهجنا العلمية خاصة المناهج الدينية ،

للعقائد المختلفة ؟ وكيف لم نعلم أبناءنا أن أهم أسباب انتشار الدين الإسلامى تكمن فى قدرته الفائقة على استيعاب جميع الأديان السابقة له ، والتيارات - التى قد تختلف معه أحيانًا - والتعايش معهم فى سلام .

إن هناك الكثير لا يزال أمامنا حتى نصحح من مسارنا وأصعب خطوات هذا التصحيح ، هو أن نبدأ بإيجابية منذ هذه اللحظة حتى نتدارك الكثير والكثير من الأخطاء التى تجاهلناها ونجنى ثمارها الفاسدة الآن ، إن بذور التطرف تبدأ من المدرسة ، فالواقع يؤكد أن معظم من سقطوا فى المواجهات الأمنية مؤخرا كانوا دون العشرين ، أى أنهم تلقوا علمهم الأساسى خلال السنوات العشر الأخيرة .

إننا لا نريد أن نطيل على القارىء فى إعادة سرد الأحداث التى يتابعها يوميًّا فى الصحف ، ولكننا نريد بشكل سريع وضع الأحداث فى سياقها الأعم كمظاهر مرئية ومحسوسة للتعرف على القصور الفادح فى فهم النخبة الحاكمة لطبيعة مشكلاتنا التى يرتبط كل منها ارتباطًا وثيقا بالآخر .

فالمماطلة فى ساحات القضاء جعلت بعض الجهلاء ينصبون من أنفسهم قضاة يقيمون الحدود فى المساجد والطرقات ، ودفعت البعض الآخر للجوء إليهم لسرعة البت فى مشكلاتهم خاصة المدنية منها ، ناهينا عما يحدث داخل السجون المصرية من مزج غريب بين سجين الرأى وتاجر المخدرات ، وبين الأستاذ الجامعى الذى يسير بدون رخصة

قيادة ، والقتلة والسفاحين ، تراكيب اجتماعية وعلمية ونفسية مختلفة تمامًا يتم الخلط بينها داخل السجون ، فماذا يفعل هؤلاء ؟

إن حالتهم النفسية والمعنوية لن تكون أفضل بكثير من حالة اليأس والإحباط وعدم الانتماء التى تصيب مبدعينا وعلمائنا حين نحاربهم ونتفنن فى قتل مواهبهم الخلاقة .

إن أحدًا لم يلتفت إلى ذلك العملاق (حسن رجب) قبل أن ينبهنا الغرب إليه ، فمنحه الرئيس الراحل أنور السادات وشاح النيل بعد أن لفت نظره بعض الأجانب لوجود هذا العالم فى بلاده ، بل إن عزلة جمال حمدان ذلك المفكر الهام فى تاريخ هذه الأمة لدلالة عميقة على المهانة التى ألمت به ودفعته إلى المشاركة من الخارج .

مصر ... إذن مقبلة على مستقبل غامض ما لم تتضح الرؤية ، فالفجوة تتسع بين النخبة الحاكمة والمحكومين ، والإحباطات تتزايد ويتم التحايل عليها بحلول مؤقتة ليست نهائية وجذرية ، وقد يتصور البعض أن الحلول الجذرية سوف تأتى فى يوم وليلة لكن الزمن هو الذى يفعل فعله بوعى كامل بأهمية الخروج من هذا المستقبل الغامض .

نحن إذن مدعوون إلى تحمل مسئولية مستقبل الأمة وليس إيجاد حلول جزئية لهذه اللحظة ، الأمر الذى يتطلب تصدى مفكرينا ومثقفينا وعلمائنا لمسئوليتهم التاريخية الملقاة على عاتقهم بعيدًا عن المزايدات أو الانحياز أو الادعاء بصحة وجهة نظر دون الأخرى إذ أن المشاركة تكمن فى المشروع الشامل المتكامل الذى سيخرج مصر من عثرتها وشبابنا من أزمتهم .

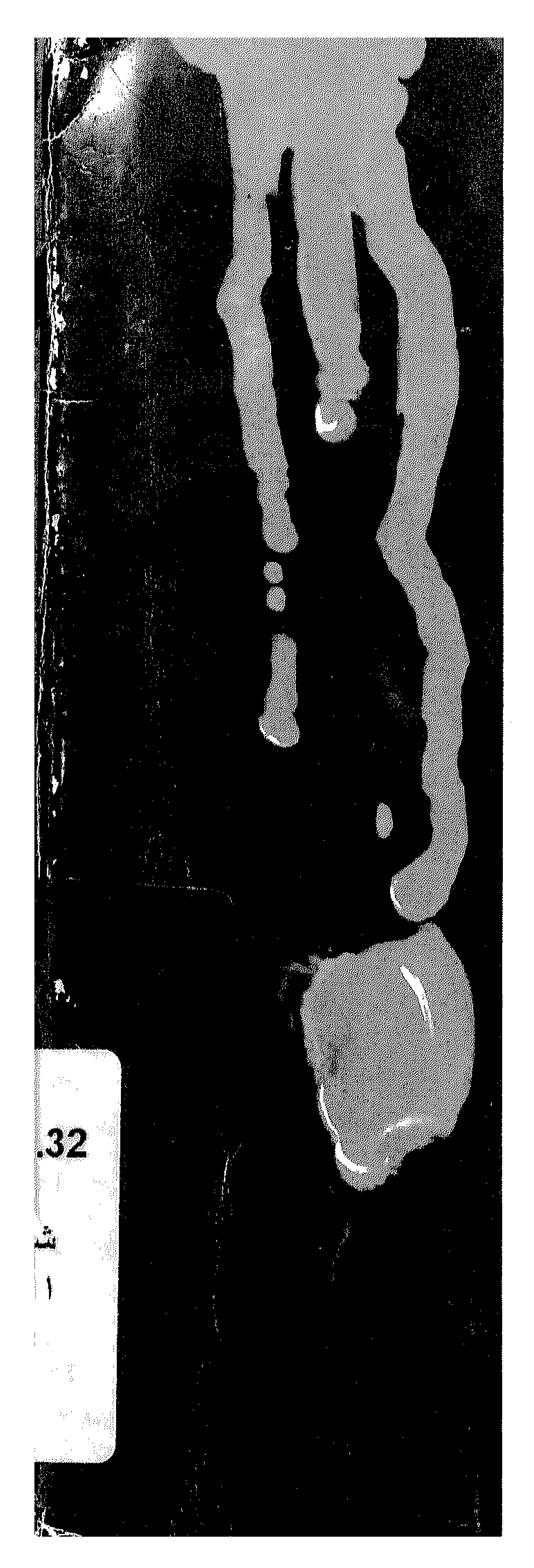
فهرس

صفحة

رقم الإيداع	١٩٩٣/٥١٦٤	
الترقيم الدولى	977-02-4112-1	ISBN

١/٩٣/٥٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



هذا الكتاب

فى الوقت الذى يهدأ فيه الحديث قليلا عن الإرهاب .. يجىء .. هذا الكتاب ليقدم رؤية تحليلية عاقلة يجتمع عليها رأى عالم نفسى مؤمن ومدقق .. وقلم صحفى مخلص .. لتفتح فى النهاية بابًا آخر من التناول فى هذه القضية المعقدة .

إننا نحتاج إلى ضرورة البحث فى داخل كل منا .. فى ظل الظروف الاجتماعية والسياسية المحلية والعالمية .. ونحتاج أكثر إلى الإجابة عن كثير من التساؤلات التى خشينا طويلاً أن نسألها .. لأنها قد تمس الوجدان العام والخاص .

وهذا الكتاب الصغير يجيب فى موضوعية وتعقل وحب للوطن .. عن مثل هذه التساؤلات .